السكينة والطمأنينة في القرآن الكريم

وفضائل العشر

جمع وترتيب

من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

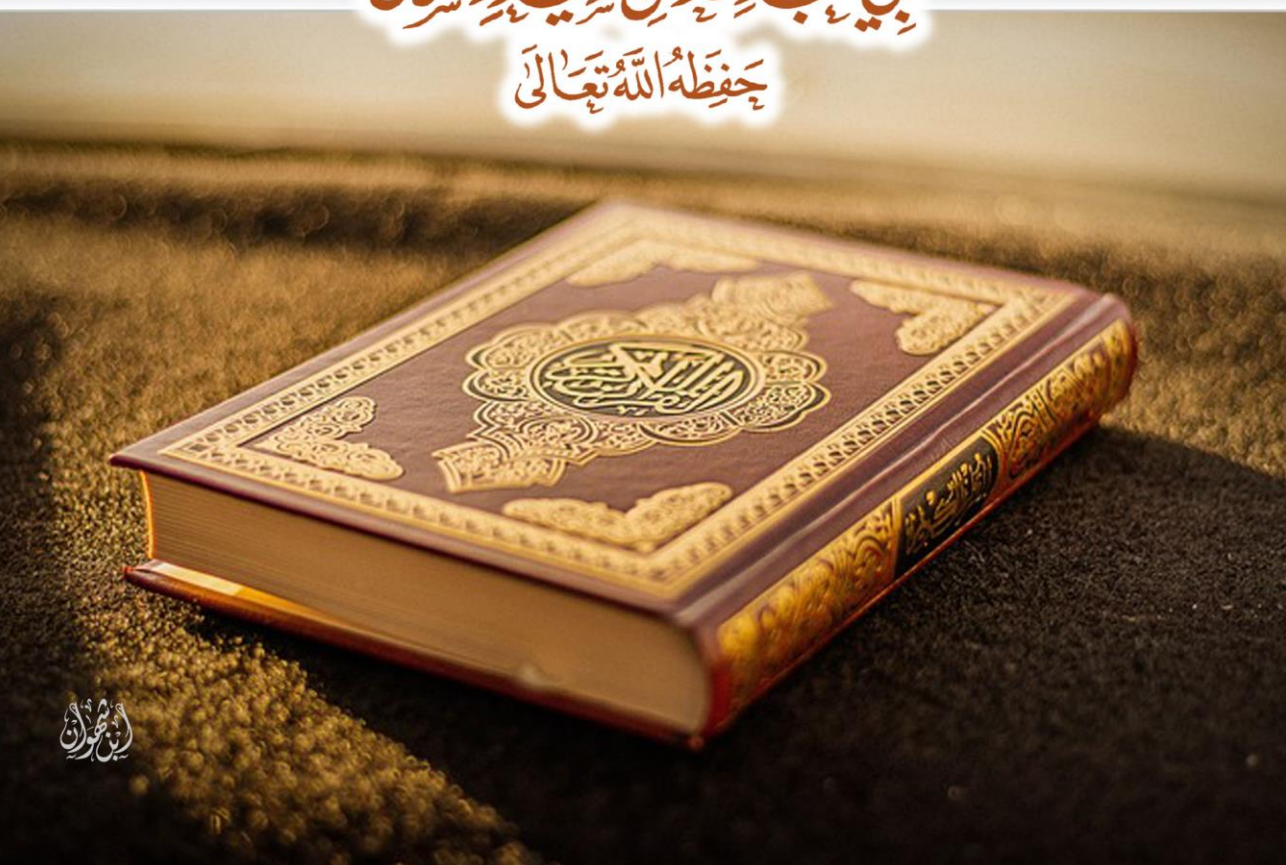

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

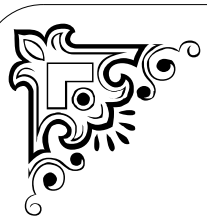

نِعْمَةُ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ فِي الْقُلُوبِ

فَالسَّكِينَةُ مِنْ أَعْظَمِ مَوَاهِبِ الْحَقِّ -سُبْحَانَهُ- وَمِنَحِهِ، وَمِنْ أَجَلِّ عَطَايَاهُ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَجْعَلْهَا فِي الْقُرْآنِ إِلَّا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(١).

«إِنَّ مِنْ مِنَّةِ اللهِ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِنْزَالَ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَهِيَ السُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ، وَالثَّبَاتُ عِنْدَ نُزُولِ الْمِحَنِ الْمُقْلِقَةِ وَالْأُمُورِ الصَّعْبَةِ الَّتِي تُشَوِّشُ الْقُلُوبَ، وَتُزْعِجُ الْأَلْبَابَ، وَتُضْعِفُ النُّفُوسَ، فَمِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يُثَبِّتَهُ، وَيَرْبِطَ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَيُنْزِلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ؛ لِيَتَلَقَّىٰ هَذِهِ الْمَشَقَّاتِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، فَيَسْتَعِدُّ بِذَلِكَ لِإِقَامَةِ أَمْرِ اللهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَيَزْدَادُ بِذَلِكَ إِيمَانُهُ، وَيَتِمُّ إِيقَانُهُ»(٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

«هُوَ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الطُّمَأْنِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ يَوْمَ

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٧٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٣٣).

الْحُدَيْبِيَّةِ فَسَكَنَتْ، وَرَسَخَ الْيَقِينُ فِيهَا؛ لِيَزْدَادُوا تَصْدِيقًا للهِ وَاتِّبَاعًا لِرَسُولِهِ مَعَ تَصْدِيقِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ.

وَللهِ ﷻ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَنْصُرُ بِهِمْ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، حَكِيمًا فِي تَدْبِيرِهِ وَصُنْعِهِ»(١).

الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم لَمَّا جَرَىٰ مَا جَرَىٰ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ تِلْكَ الشُّرُوطِ الَّتِي ظَاهِرُهَا أَنَّهَا غَضَاضَةٌ عَلَيْهِمْ، وَحَطٌّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، وَتِلْكَ لَا تَكَادُ تَصْبِرُ عَلَيْهَا النُّفُوسُ، فَلَمَّا صَبَرُوا عَلَيْهَا وَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ لَهَا؛ ازْدَادُوا بِذَلِكَ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ»(٢).

❀❀❀

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٥١١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٣٣).

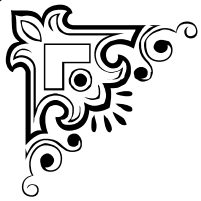

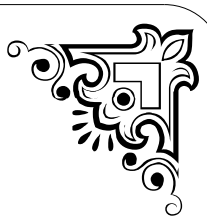

مَعْنَى السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ

«**السَّكِينَةُ لُغَةً**: «مَأْخُوذَةٌ مِنْ مَادَّةِ (س ك ن) الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ خِلَافِ الِاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ، يُقَالُ: سَكَنَ الشَّيْءُ إِذَا ذَهَبَتْ حَرَكَتُهُ فَاسْتَقَرَّ وَثَبَتَ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: السَّكِينَةُ، وَهِيَ الْوَقَارُ، وَقِيلَ: الْوَدَاعَةُ وَالْوَقَارُ»(١).

وَقَدْ يُرَادُ بِهَا الرَّحْمَةُ، أَوِ الْوَقَارُ وَالْوَدَاعَةُ وَالْأَمْنُ، وَالسَّكِينَةُ الَّتِي تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ: قِيلَ: هِيَ الطُّمَأْنِينَةُ، وَقِيلَ: هِيَ النَّصْرُ، وَقِيلَ: هِيَ الْوَقَارُ وَمَا يَسْكُنُ بِهِ الْإِنْسَانُ.

«**أَمَّا السَّكِينَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** [الفتح: ٢٦]؛ فَقَدْ جَاءَ فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّهَا: الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ.

وَقِيلَ: هِيَ تَثْبِيتُهُمْ عَلَىٰ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ»(٢).

السَّكِينَةُ اصْطِلَاحًا: قَالَ الْجُرْجَانِيُّ: «هِيَ مَا يَجِدُهُ الْقَلْبُ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ عِنْدَ تَنَزُّلِ الْغَيْبِ، وَهِيَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يَسْكُنُ إِلَيْهِ شَاهِدُهُ وَيَطْمَئِنُّ، وَقِيلَ:

---

(١) «مقاييس اللغة» (٣/ ٨٨)، و«الصحاح» (٥/ ٢١٣٦).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٨٩٩).

هِيَ زَوَالُ الرُّعْبِ»(١).

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «هِيَ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ»(٢)»(٣).

«**الطُّمَأْنِينَةُ لُغَةً**: هِيَ الِاسْمُ مِنَ الِاطْمِئْنَانِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ قَوْلِهِم: اطْمَأَنَّ الشَّيْءُ يَطْمَئِنُّ إِذَا سَكَنَ، وَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ (ط م ن) بِزِيَادَةِ الْهَمْزَةِ، يُقَالُ فِيهِ: اطْمَأَنَّ الْمَكَانُ إِذَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ، وَاطْمَأَنَّ الرَّجُلُ اطْمِئْنَانًا وَطُمَأْنِينَةً أَيْ: سَكَنَ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ**﴾ [الرعد: ٢٨].

قِيلَ: «مَعْنَاهُ: إِذَا ذُكِرَ اللهُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ آمَنُوا بِهِ غَيْرَ شَاكِّينَ».

وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧**﴾ [الفجر: ٢٧]: هِيَ الَّتِي قَدِ اطْمَأَنَّتْ بِالْإِيمَانِ، وَأَخْبَتَتْ لِرَبِّهَا.

قَالَ الرَّاغِبُ(٤): «مَعْنَاهُ: هِيَ أَلَّا تَصِيرَ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ، وَاطْمَأَنَّ وَتَطَامَنَ مُتَقَارِبَانِ لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، الطُّمَأْنِينَةُ: هِيَ السُّكُونُ بَعْدَ الِانْزِعَاجِ».

---

(١) «التعريفات للجرجاني» (١٢٥)، و«التوقيف» للمناوي (١٩٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٢٥).

(٣) «نضرة النعيم» (٦/ ٢٦٧٢).

(٤) «الصحاح للجوهري» (٦/ ٢١٥٨)، و«لسان العرب» ٩٩ لابن منظور (١٣/ ٢٦٨)، و«المفردات» للراغب (ص: ٣٠٧)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٤٢٢).

قَالَ الْكَفَوِيُّ(١): «الطُّمَأْنِينَةُ فِي الشَّرْعِ -يَعْنِي: عِنْدَ الْفُقَهَاءِ-: الْقَرَارُ بِمِقْدَارِ التَّسْبِيحَةِ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ».

وَقَالَ الْحَرَالِيُّ(٢): «هِيَ الْهُدُوءُ وَالسُّكُونُ عَلَىٰ سَوَاءِ الْخِلْقَةِ وَاعْتِدَالِ الْخُلُقِ».

وَقَالَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ(٣): «الطُّمَأْنِينَةُ: سُكُونٌ يُقَوِّيهِ أَمْنٌ صَحِيحٌ شَبِيهٌ بِالْعَيَانِ».

وَهُنَالِكَ فَرْقٌ بَيْنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ:

قَالَ الْفَيْرُوزَ آبَادِيُّ(٤): «الطُّمَأْنِينَةُ وَالسَّكِينَةُ كُلٌّ مِنْهُمَا تَسْتَلْزِمُ الْأُخْرَىٰ؛ لَكِنَّ اسْتِلْزَامَ الطُّمَأْنِينَةِ السَّكِينَةَ أَقْوَىٰ مِنَ الْعَكْسِ، ثُمَّ إِنَّ الطُّمَأْنِينَةَ أَعَمُّ مِنَ السَّكِينَةِ، وَهِيَ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ: طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللهِ، وَهِيَ طُمَأْنِينَةُ الْخَائِفِ إِلَىٰ الرَّجَاءِ.

وَالطُّمَأْنِينَةُ: سُكُونُ أَمْنٍ فِيهِ اسْتِرَاحَةُ أُنْسٍ.

وَالسَّكِينَةُ تَكُونُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ، وَالطُّمَأْنِينَةُ لَا تُفَارِقُ صَاحِبَهَا، وَكَأَنَّهَا نِهَايَةُ السَّكِينَةِ».

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ صَاحِبِ الْمَنَازِلِ(٥): «أَنَّ بَيْنَ الطُّمَأْنِينَةِ

---

(١) «المفردات للراغب» (٣٠٧)، و«الكليات» للكفوي (٥٦٥).

(٢) «التوقيف» علىٰ مهمات التعاريف (٢٢٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٣٦).

(٤) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٥١٧).

(٥) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٨١).

وَالسَّكِينَةِ فَرْقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّكِينَةَ صَوْلَةٌ تُورِثُ خُمُودَ الْهَيْبَةِ أَحْيَانًا، وَالطُّمَأْنِينَةَ: سُكُونُ أَمْنٍ فِي اسْتِرَاحَةِ أُنْسٍ.

وَالثَّانِي: أَنَّ السَّكِينَةَ تَكُونُ نَعْتًا، وَتَكُونُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ، وَالطُّمَأْنِينَةَ لَا تُفَارِقُ صَاحِبَهَا، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ الطُّمَأْنِينَةُ مُوجِبَ السَّكِينَةِ وَأَثَرًا مِنْ آثَارِهَا، وَكَأَنَّهَا نِهَايَةُ السَّكِينَةِ»»[1].

(١) «نضرة النعيم» (٦/ ٢٧٠٢-٢٧٠٣).

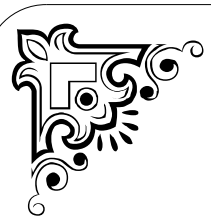

السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لَقَدِ اعْتَنَى الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ عِنَايَةً بَالِغَةً؛ حَيْثُ جَاءَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي الْإِيمَانِيَّةُ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ أَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ وَالْمَخَاوِفِ الَّتِي تَفْزَعُ لَهُ الْأَفْئِدَةُ، حِينَهَا تَتَنَزَّلُ السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِي قُلُوبِ الْمُتَّقِينَ، تُبَشِّرُهُمْ بِمَعِيَّةِ اللهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ- فِي شَأْنِ يَوْمِ بَدْرٍ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

«﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فِي عَدَدِكُمْ وَعُدَدِكُمْ، فَكَانُوا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، فِي قِلَّةِ ظَهْرٍ وَرَثَاثَةِ سِلَاحٍ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يُنَاهِزُونَ الْأَلْفَ فِي كَمَالِ الْعُدَّةِ وَالسِّلَاحِ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِنَصْرِهِ.

إِذْ تَقُولُ مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ مُثَبِّتًا لِجَنَانِهِمْ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أَيْ: مِنْ حَمْلَتِهِمْ هَذِهِ بِهَذَا

الْوَجْهِ ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أَيْ: مُعَلَّمِينَ عَلَامَةَ الشُّجْعَانِ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ كَانَ هَذَا الْإِمْدَادُ حَصَلَ فِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُبَاشَرَةً لِلْقِتَالِ -كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ-، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ تَثْبِيتٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِلْقَاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ -كَمَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ-؟ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾، وَفِي هَذَا أَنَّ الْأَسْبَابَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، بَلْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ اللهِ، وَإِنَّمَا الْأَسْبَابُ وَتَوَفُّرُهَا فِيهَا طُمَأْنِينَةٌ لِلْقُلُوبِ، وَثَبَاتٌ عَلَىٰ الْخَيْرِ»(١).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ- فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

«يَمْتَنُّ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ مَوَاطِنِ اللِّقَاءِ وَمَوَاضِعِ الْحُرُوبِ وَالْهَيْجَاءِ؛ حَتَّىٰ فِي يَوْمِ (حَنِينٍ) الَّذِي اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ فِيهِ الْأَزْمَةُ، وَرَأَوْا مِنَ التَّخَاذُلِ وَالْفِرَارِ مَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ بِهِ الْأَرْضُ عَلَىٰ رَحْبِهَا وَسِعَتِهَا.

وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ سَمِعَ أَنَّ (هَوَازِنَ) اجْتَمَعُوا لِحَرْبِهِ؛ فَسَارَ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٥٤).

إِلَيْهِمْ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ الَّذِينَ فَتَحُوا مَكَّةَ، وَبِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الطُّلَقَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ، فَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَالْمُشْرِكُونَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، فَأُعْجِبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ بِكَثْرَتِهِمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ».

فَلَمَّا الْتَقَوْا هُمْ وَهَوَازِنُ حَمَلُوا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ حَمْلَةً وَاحِدَةً، فَانْهَزَمُوا لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ ثَبَتُوا مَعَهُ، وَجَعَلُوا يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ نَحْوَ الْمُشْرِكِينَ وَيَقُولُ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**».

وَلَمَّا رَأَىٰ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا رَأَىٰ أَمَرَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْأَنْصَارِ وَبَقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ -وَكَانَ رَفِيعَ الصَّوْتِ-، فَنَادَاهُمْ: «يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ! يَا أَهْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ!».

فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ عَطَفُوا عَطْفَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاجْتَلَدُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَهَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ هَزِيمَةً شَنِيعَةً، وَاسْتَوْلَوْا عَلَىٰ مُعَسْكَرِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ﴾ وَهُوَ اسْمٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ الْوَقْعَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: لَمْ تُفِدْكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بِمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ حِينَ انْهَزَمْتُمْ ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أَيْ: عَلَىٰ رَحْبِهَا وَسِعَتِهَا، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: مُنْهَزِمِينَ.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَالسَّكِينَةُ: مَا يَجْعَلُهُ اللهُ فِي الْقُلُوبِ وَقْتَ الْقَلَاقِلِ وَالزَّلَازِلِ وَالْمُفْظِعَاتِ مِمَّا يُثَبِّتُهَا، وَيُسَكِّنُهَا، وَيَجْعَلُهَا مُطْمَئِنَّةً، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ الْعِبَادِ.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَنْزَلَهُمُ اللهُ مَعُونَةً لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ حُنَيْنٍ يُثَبِّتُونَهُمْ، وَيُبَشِّرُونَهُمْ بِالنَّصْرِ.

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بِالْهَزِيمَةِ وَالْقَتْلِ، وَاسْتِيلَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ»[1].

وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ رَأَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ أَنَّ شُرُوطَ الصُّلْحِ بِهِمْ مُجْحِفَةٌ، وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ- السَّكِينَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا وَتَثْبِيتًا لَهُمْ؛ حَيْثُ جَاءَ لَفْظُ (السَّكِينَةِ) فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ تَخْتَصُّ بِذَلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

«﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أَيْ: جَعَلَ الطُّمَأْنِينَةَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، وَعَنْهُ: الرَّحْمَةُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْوَقَارُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَلَمَّا

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٧٩).

اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ زَادَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِرِضَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِذْ يُبَايِعُونَ الرَّسُولَ ﷺ تِلْكَ الْمُبَايَعَةَ الَّتِي بَيَّضَتْ وُجُوهَهُمْ، وَاكْتَسَبُوا بِهَا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْبَيْعَةِ -الَّتِي يُقَالُ لَهَا: (بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ) لِرِضَا اللهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا، وَيُقَالُ لَهَا: (بَيْعَةُ أَهْلِ الشَّجَرَةِ)-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَارَ الْكَلَامُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي شَأْنِ مَجِيئِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتَ، مُعَظِّمًا لَهُ.

فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ لِمَكَّةَ فِي ذَلِكَ، فَجَاءَ خَبَرٌ غَيْرُ صَادِقٍ أَنَّ عُثْمَانَ قَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ، فَجَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ، فَبَايَعُوهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ عَلَىٰ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلَّا يَفِرُّوا حَتَّىٰ يَمُوتُوا، فَأَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ رَضِيَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الطَّاعَاتِ وَأَجَلِّ الْقُرُبَاتِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ شُكْرًا لَهُمْ عَلَىٰ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، زَادَهُمْ هُدًى، وَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ مِنْ تِلْكَ الشُّرُوطِ الَّتِي شَرَطَهَا الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ رَسُولِهِ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةَ تُثَبِّتُهُمْ، وَتَطْمَئِنُّ بِهَا قُلُوبُهُمْ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَهُوَ: (فَتْحُ خَيْبَرَ)، لَمْ

(١) «تفسير ابن كثير» (ص: ٣٠٤-٣٠٥).

يَحْضُرْهُ سِوَىٰ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ، فَاخْتُصُّوا بِخَيْبَرَ وَغَنَائِمِهَا؛ جَزَاءً لَهُمْ، وَشُكْرًا عَلَىٰ مَا فَعَلُوهُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَالْقِيَامِ بِمَرْضَاتِهِ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

«يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حَيْثُ أَنِفُوا مِنْ كِتَابَةِ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وَأَنِفُوا مِنْ دُخُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ؛ لِئَلَّا يَقُولَ النَّاسُ: «دَخَلُوا مَكَّةَ قَاهِرِينَ لِقُرَيْشٍ».

وَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ تَزَلْ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ أَوْجَبَتْ لَهُمْ مَا أَوْجَبَتْ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَاصِي، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمْ يَحْمِلْهُمُ الْغَضَبُ عَلَىٰ مُقَابَلَةِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا قَابَلُوهُمْ بِهِ، بَلْ صَبَرُوا لِحُكْمِ اللهِ، وَالْتَزَمُوا الشُّرُوطَ الَّتِي فِيهَا تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللهِ وَلَوْ كَانَتْ مَا كَانَتْ، وَلَمْ يُبَالُوا بِقَوْلِ الْقَائِلِينَ، وَلَا لَوْمِ اللَّائِمِينَ.

وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَهِيَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَحُقُوقُهَا أَلْزَمَهُمُ الْقِيَامَ بِهَا، فَالْتَزَمُوهَا وَقَامُوا بِهَا، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَهَا الَّذِينَ اسْتَأْهَلُوهَا؛ لِمَا يَعْلَمُ اللهُ عِنْدَهُمْ وَفِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٣٦).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٣٨).

وَأَخْبَرَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الطُّمَأْنِينَةَ فِي قَلْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْغَارِ مُحَاطٌ بِالْأَخْطَارِ، وَأَعَانَهُ بِجُنُودٍ لَمْ يَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَذَلَّ اللهُ أَعْدَاءَهُ، قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

«إِلَّا تَنْصُرُوا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ فَاللهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا، فَقَدْ نَصَرَهُ فِي أَقَلِّ مَا يَكُونُ وَأَذَلِّهِ؛ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ لَمَّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَسَعَوْا فِي ذَلِكَ، وَحَرَصُوا أَشَدَّ الْحِرْصِ، فَأَلْجَأُوهُ إِلَىٰ أَنْ يَخْرُجَ.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أَيْ: هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أَيْ: لَمَّا هَرَبَا مِنْ مَكَّةَ لَجَئَا إِلَىٰ غَارِ ثَوْرٍ فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَمَكَثَا فِيهِ لِيَبْرُدَ عَنْهُمَا الطَّلَبُ.

فَهُمَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْحَرِجَةِ الشَّدِيدَةِ الْمَشَقَّةِ حِينَ انْتَشَرَ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَطْلُبُونَهُمَا لِيَقْتُلُوهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مِنْ نَصْرِهِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَىٰ الْبَالِ.

إِذْ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ لِصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا حَزِنَ وَاشْتَدَّ قَلَقُهُ، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ بِعَوْنِهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: الثَّبَاتَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، وَالسُّكُونَ الْمُثَبِّتَةَ لِلْفُؤَادِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَلِقَ صَاحِبُهُ سَكَّنَهُ وَقَالَ: «لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا».

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ حَرَسًا لَهُ، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ﴾ أَيِ: السَّاقِطَةَ الْمَخْذُولَةَ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ كَانُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ فِي ظَنِّهِمْ عَلَىٰ قَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْذِهِ، حَنِقِينَ عَلَيْهِ، فَعَمِلُوا غَايَةَ مَجْهُودِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَخَذَلَهُمُ اللهُ، وَلَمْ يُتِمَّ لَهُمْ مَقْصُودَهُمْ؛ بَلْ وَلَا أَدْرَكُوا شَيْئًا مِنْهُ.

وَنَصَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِدَفْعِهِ عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ النَّصْرُ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ فَإِنَّ النَّصْرَ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: نَصْرُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا طَمِعُوا فِي عَدُوِّهِمْ بِأَنْ يُتِمَّ اللهُ لَهُمْ مَا طَلَبُوا وَقَصَدُوا، وَيَسْتَوْلُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ وَيَظْهَرُوا عَلَيْهِمْ.

وَالثَّانِي: نَصْرُ الْمُسْتَضْعَفِ الَّذِي طَمِعَ فِيهِ عَدُوُّهُ الْقَادِرُ، فَنَصْرُ اللهِ إِيَّاهُ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ عَدُوَّهُ، وَيُدَافِعَ عَنْهُ، وَلَعَلَّ هَذَا النَّصْرَ أَنْفَعُ النَّصْرَيْنِ، وَنَصْرُ اللهِ رَسُولَهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ أَيْ: كَلِمَاتُهُ الْقَدَرِيَّةُ وَكَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ هِيَ الْعَالِيَةُ عَلَىٰ كَلِمَةِ غَيْرِهِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، فَدِينُ اللهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَىٰ سَائِرِ الْأَدْيَانِ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالسُّلْطَانِ النَّاصِرِ.

وَاللهُ عَزِيزٌ لَا يُغَالِبُهُ مُغَالِبٌ، وَلَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ، حَكِيمٌ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَقَدْ يُؤَخِّرُ نَصْرَ حِزْبِهِ إِلَىٰ وَقْتٍ آخَرَ اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَضِيلَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِخِصِّيصَةٍ لَمْ تَكُنْ لِغَيْرِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ الْفَوْزُ بِهَذِهِ الْمَنْقَبَةِ الْجَلِيلَةِ، وَالصُّحْبَةِ الْجَمِيلَةِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ وَلِهَذَا عَدُّوا مَنْ أَنْكَرَ صُحْبَةَ أَبِي بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ مُنْكِرٌ لِلْقُرْآنِ الَّذِي صَرَّحَ بِهَا.

وَفِيهَا: فَضِيلَةُ السَّكِينَةِ، وَأَنَّهَا مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ وَالْمَخَاوِفِ الَّتِي تَطِيشُ بِهَا الْأَفْئِدَةُ، وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَىٰ حَسَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ، وَثِقَتِهِ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ، وَبِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَشَجَاعَتِهِ.

وَفِيهَا: أَنَّ الْحُزْنَ قَدْ يَعْرِضُ لِخَوَاصِّ عِبَادِ اللهِ الصِّدِّيقِينَ، مَعَ أَنَّ الْأَوْلَىٰ -إِذَا نَزَلَ بِالْعَبْدِ- أَنْ يَسْعَىٰ فِي ذَهَابِهِ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ مُضْعِفٌ لِلْقَلْبِ، مُوهِنٌ لِلْعَزِيمَةِ»(١).

وَمِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي (الطُّمَأْنِينَةِ): قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾**﴾ [آل عمران: ١٢٦].

«وَمَا جَعَلَ اللهُ هَذَا الْإِمْدَادَ بِالْمَلَائِكَةِ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ يُبَشِّرُكُمْ بِهَا، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ وَتَطِيبَ بِوَعْدِ اللهِ لَكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُغَالَبُ، الْحَكِيمِ فِي تَدْبِيرِهِ وَفِعْلِهِ»(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ**﴾ [النساء: ١٠٣].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٦٦).

«يَأْمُرُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِيبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ، وَإِنْ كَانَ مَشْرُوعًا مُرَغَّبًا فِيهِ -أَيْضًا- بَعْدَ غَيْرِهَا؛ وَلَكِنْ هَاهُنَا آكَدُ؛ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْفِيفِ فِي أَرْكَانِهَا، وَمِنَ الرُّخْصَةِ فِي الذَّهَابِ فِيهَا وَالْإِيَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أَيْ: فِي سَائِرِ أَحْوَالِكُمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ، وَحَصَلَتِ الطُّمَأْنِينَةُ ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: فَأَتِمُّوهَا وَأَقِيمُوهَا كَمَا أُمِرْتُمْ بِحُدُودِهَا، وَخُشُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَجَمِيعِ شُؤُونِهَا»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

«وَيَهْدِي الَّذِينَ تَسْكُنُ قُلُوبُهُمْ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَذِكْرِهِ فَتَطْمَئِنُّ، أَلَا بِطَاعَةِ اللهِ وَذِكْرِهِ وَثَوَابِهِ تَسْكُنُ الْقُلُوبُ وَتَسْتَأْنِسُ»(٢).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا **ذَاكِرًا نِعْمَةَ الْأَوْطَانِ الْآمِنَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ:** ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٧).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٢٥٢).

«وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ مَكَّةُ الْمُشَرَّفَةُ الَّتِي كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً لَا يُهَاجُ فِيهَا أَحَدٌ، وَتَحْتَرِمُهَا الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ؛ حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ يَجِدُ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلَا يَهِيجُهُ مَعَ شِدَّةِ الْحَمِيَّةِ فِيهِمْ وَالنَّعَرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْأَمْنِ التَّامِّ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِسِوَاهَا، وَكَذَلِكَ الرِّزْقُ الْوَاسِعُ.

كَانَتْ بَلْدَةً لَيْسَ فِيهَا زَرْعٌ وَلَا شَجَرٌ، وَلَكِنْ يَسَّرَ اللهُ لَهَا الرِّزْقَ يَأْتِيهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَجَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ يَعْرِفُونَ أَمَانَتَهُ وَصِدْقَهُ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَكْمَلِ الْأُمُورِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ، فَكَذَّبُوهُ وَكَفَرُوا بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ، فَأَذَاقَهُمُ اللهُ ضِدَّ مَا كَانُوا فِيهِ، وَأَلْبَسَهُمْ لِبَاسَ الْجُوعِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الرَّغَدِ، وَالْخَوْفِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْأَمْنِ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾»(١).

وَوَصَفَ اللهُ النُّفُوسَ الطَّيِّبَةَ الْمُؤْمِنَةَ بِالْمُطْمَئِنَّةِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

«﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، السَّاكِنَةِ إِلَىٰ حُبِّهِ، الَّتِي قَرَّتْ عَيْنُهَا بِاللهِ ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الَّذِي رَبَّاكِ بِنِعْمَتِهِ، وَأَسْدَىٰ عَلَيْكِ مِنْ إِحْسَانِهِ مَا صِرْتِ بِهِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَابِهِ ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: رَاضِيَةً عَنِ اللهِ، وَعَمَّا أَكْرَمَهَا بِهِ مِنَ الثَّوَابِ، وَاللهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهَا.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥٢٣-٥٢٤).

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾: وَهَذَا تُخَاطَبُ بِهِ الرُّوحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُخَاطَبُ بِهِ وَقْتَ السِّيَاقِ وَالْمَوْتِ»[1].

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٩٠-١٠٩١).

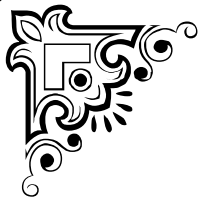

السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

لَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ السَّكِينَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحَادِيثِهِ الشَّرِيفَةِ، وَأَمَرَنَا بِالسَّكِينَةِ فِي عِبَادَاتِنَا؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»(١).

وَعَنِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ رضي الله عنهما -وَكَانَ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ-، أَنَّهُ قَالَ فِي عَشِيَّةِ عَرَفَةَ وَغَدَاةِ جَمْعٍ لِلنَّاسِ حِينَ دَفَعُوا: «**عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ**»، وَهُوَ كَافٌّ نَاقَتَهُ، حَتَّىٰ دَخَلَ مُحَسِّرًا -وَهُوَ مِنْ مِنًى- قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِحَصَىٰ الْخَذْفِ**(٢) **الَّذِي يُرْمَىٰ بِهِ الْجَمْرَةُ**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧)، وابن ماجه (٧٧٥)، وأحمد (٧٦٤٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٢٧).

(٢) المَقصودُ الإيضاحُ وزيادةُ بيانِ حَجمِ الحَصَىٰ الَّذي يُرْمَىٰ به في الجَمَراتِ، وأنَّه يكونُ صغيرًا، مِثلَ حَصَىٰ الخَذْفِ، وليس المَقصودُ أنَّ الرَّميَ يكونُ علىٰ هَيْئةِ الخَذْفِ، وهو الرَّميُ بطَرَفَيِ الإبهامِ والسَّبَّابةِ.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٨٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ(١) أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ**»(٢).

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُوا حَتَّىٰ تَرَوْنِي وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ(٣)**»(٤).

---

(١) **الفَدَّادون**: همُ الَّذين يَرفَعونَ أصواتَهم، وهي عادَةُ أصحابِ الإبلِ، وقيل: هي البقرُ الَّتي يُحرَثُ بها، وقيل: هم رُعاةُ الإبلِ والبقرِ والحَميرِ وغيرِها. وهمْ من أَهلِ الوَبَرِ، وهو شَعَرُ الإبلِ، وفي رِوايةٍ في الصَّحيحينِ: «في الفَدَّادِينَ عندَ أُصولِ أذْنَابِ الإبِلِ»، فالمقصودُ سُكَّانُ الصَّحاري ولَيسوا مِن أَهْلِ الحضَرِ، بلْ مِن البَدْوِ القاسيةِ قُلوبُهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٠١).

(٣) الصَّلاةُ هي لِقاءُ المؤمنِ بربِّه ﷻ؛ ففيها استِشعارٌ بحالِ الوُقوفِ بيْنَ يَدي اللهِ تعالَىٰ، وقدْ علَّمَنا نبيُّنا ﷺ آدابَ القِيامِ إليها، كما في هذا الحَديثِ، حيثُ يَنهىٰ النبيُّ ﷺ أصحابَه رضي الله عنهم عن القِيامِ إلىٰ الصَّلاةِ حتَّىٰ يَرَوْه، والمرادُ أنَّ ذلك يكونُ في صَلاةِ الجَماعةِ وحالَ انتظارِ المَأمومِ للإقامةِ؛ حتَّىٰ تكونَ الإقامةُ مُتَّصِلةً بالصَّلاةِ، والمرادُ برُؤيتِه ﷺ: هو تَجهُّزُه وإرادتُه الصَّلاةَ، والنَّهيُ عن القيام قبْلَ أنْ يَرَوْهُ؛ لئلَّا يَطولَ عليهم القِيامُ، ولأنَّه قد يَعرِضُ له عارِضٌ فيَتأخَّرُ بسَببِه. والأصلُ أنَّ المأمومَ يَقومُ عندَ سَماعِه للإقامةِ، وأنَّ المُقيمَ لا يَشرَعُ في الإقامةِ حتَّىٰ يَأذَنَ الإمامُ بها، أو حالَ رُؤيتِه إيَّاهُ؛ ففي «صَحيحِ مُسلمٍ» عن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضي الله عنه، قال: «كان بِلالٌ يُؤَذِّنُ إذا دحَضَتْ، فلا يُقيمُ حتَّىٰ يَخرُجَ النبيُّ ﷺ، فإذا خرَج أقامَ الصَّلاةَ حينَ يَراهُ»، دَحَضَت، أي: الشَّمسُ، يُقال: دَحَضَت الشَّمسُ عن بَطْنِ السَّماءِ: إذا زالَت عن وسَطِ السَّماءِ إلىٰ جِهةِ الغَرْبِ. ثمَّ أمَرَهم النبيُّ ﷺ بالسَّكينةِ والطُّمَأْنينةِ حالَ قِيامِهم إلىٰ الصَّلاةِ؛ لأنَّها لازمةٌ عندَ الوُقوفِ بيْن يدَي اللهِ ﷻ، والتحَلِّي بالسَّكينةِ يَستلزِمُ تَرْكَ الاستِعجالِ والسُّرعةِ عندَ القيامِ وإتيانِ الصَّلاةِ.

(٤) أخرجه البخاري (٩٠٩).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»(٢).

وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رضي الله عنه **قَالَ: قُلْتُ:** «يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِمَا يَحِلُّ لِي وَيَحْرُمُ عَلَيَّ».

قَالَ: «فَصَعَّدَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَوَّبَ فِيَّ النَّظَرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ؛ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ**»، وَقَالَ: «**لَا تَقْرَبْ لَحْمَ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا ذَا نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ رضي الله عنه **قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ** رضي الله عنهما: «مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟».

قَالَ: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ**

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٧٧)، والطبراني (٢٢/ ٢١٩) (٥٨٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٣٥).

الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ السَّلَامَ، قَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**».

فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّىٰ كَمَا كَانَ صَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». حَتَّىٰ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ الرَّجُلُ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا، عَلِّمْنِي».

قَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّىٰ تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**»(٢).

❀❀❀

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٦٦٨، رقم ٢٥١٨)، والنسائي: (٨/ ٣٢٧، رقم ٥٧١١).
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»، وكذا صححه أيضا الألباني في «**إرواء الغليل**»: (١/ ٤٤، رقم ١٢)، وروي عن ابن عمر وأنس رضي الله عنهم، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧).

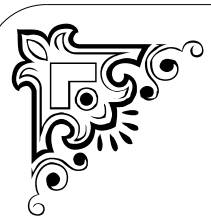

مَنْزِلَةُ السَّكِينَةِ

«مَنْزِلَةُ السَّكِينَةِ مِنْ مَنَازِلِ الْمَوَاهِبِ، لَا مِنْ مَنَازِلِ الْمَكَاسِبِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- السَّكِينَةَ فِي كِتَابِهِ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ:

الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

الْخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] الْآيَةَ.

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ -كَمَا يَقُولُ تِلْمِيذُهُ النَّجِيبُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ- إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ قَرَأَ آيَاتِ السَّكِينَةِ.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي وَاقِعَةٍ عَظِيمَةٍ جَرَتْ لَهُ فِي مَرَضِهِ تَعْجِزُ الْعُقُولُ عَنْ حَمْلِهَا -مِنْ مُحَارَبَةِ أَرْوَاحٍ شَيْطَانِيَّةٍ ظَهَرَتْ لَهُ إِذْ ذَاكَ فِي حَالِ ضَعْفِ الْقُوَّةِ- قَالَ: «فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيَّ الْأَمْرُ قُلْتُ لِأَقَارِبِي وَمَنْ حَوْلِيَ: اقْرَءُوا آيَاتِ السَّكِينَةِ، قَالَ: ثُمَّ أَقْلَعَ عَنِّي ذَلِكَ الْحَالُ، وَجَلَسْتُ وَمَا بِي قَلْبَةٌ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا -أَيْضًا- قِرَاءَةَ هَذِهِ الْآيَاتِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الْقَلْبِ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي سُكُونِهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ».

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْقُرْآنَ شِفَاءٌ؛ لَكِنْ لَمْ تَثْبُتْ لِآيَاتِ السَّكِينَةِ مَزِيَّةٌ خَاصَّةٌ فِي عِلَاجِ هَذِهِ الْحَالِ، فَالْأَصْلُ عِلَاجُهَا بِمَا ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَالْمُعَوِّذَاتِ، فَهِيَ خَيْرُ الْأَدْوِيَةِ وَأَنْجَعُهَا.

«**وَأَصْلُ السَّكِينَةِ**: الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَخَاوِفِ، فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ.

وَلِهَذَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْ إِنْزَالِهَا عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعِ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ؛ كَيَوْمِ الْهِجْرَةِ إِذْ هُوَ وَصَاحِبُهُ فِي الْغَارِ، وَالْعَدُوُّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآهُمَا، وَكَيَوْمِ حُنَيْنٍ حِينَ وَلَّوْا مُدْبِرِينَ مِنْ شِدَّةِ بَأْسِ الْكُفَّارِ، لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَكَيَوْمِ الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ تَحَكُّمِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ، وَدُخُولِهِمْ تَحْتَ شُرُوطِهِمُ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُهَا النُّفُوسُ، وَحَسْبُكَ بِضَعْفِ عُمَرَ رضي الله عنه عَنْ حَمْلِهَا -وَهُوَ عُمَرُ!- حَتَّىٰ ثَبَّتَهُ اللهُ بِالصِّدِّيقِ رضي الله عنه.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كُلُّ سَكِينَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ طُمَأْنِينَةٌ إِلَّا الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) **عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ** رضي الله عنهما **قَالَ**: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّىٰ وَارَىٰ التُّرَابُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وَهِيَ السَّكِينَةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ شَيْءٌ يَجْمَعُ نُورًا، وَقُوَّةً، وَرُوحًا يَسْكُنُ إِلَيْهِ الْخَائِفُ، وَيَتَسَلَّىٰ بِهِ الْحَزِينُ وَالضَّجِرُ،

(١) أخرجه البخاري (٤١٠٦)، ومسلم (١٨٠٣).

وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ الْعَصِيُّ وَالْجَرِيءُ وَالْأَبِيُّ.

هَذَا الشَّيْءُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ فِي قَلْبِ رَسُولِهِ ﷺ وَقُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَعَانٍ: النُّورُ، وَالْقُوَّةُ، وَالرُّوحُ.

وَذَكَرَ لَهُ ثَلَاثَ ثَمَرَاتٍ: سُكُونُ الْخَائِفِ إِلَيْهِ، وَتَسَلِّي الْحَزِينِ وَالضَّجِرِ بِهِ، وَاسْتِكَانَةُ صَاحِبِ الْمَعْصِيَةِ وَالْجَرْأَةِ عَلَىٰ الْمُخَالَفَةِ وَالْإِبَاءِ إِلَيْهِ.

فَبِالرُّوحِ الَّذِي فِيهَا -يَعْنِي: فِي السَّكِينَةِ-: حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَبِالنُّورِ الَّذِي فِيهَا: اسْتِنَارَتُهُ وَضِيَاؤُهُ وَإِشْرَاقُهُ، وَبِالْقُوَّةِ: ثَبَاتُهُ وَعَزْمُهُ وَنَشَاطُهُ.

فَالنُّورُ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ، وَحَقَائِقِ الْيَقِينِ، وَيُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَالشَّكِّ وَالْيَقِينِ.

وَالْحَيَاةُ تُوجِبُ كَمَالَ يَقَظَتِهِ، وَفِطْنَتِهِ، وَحُضُورِهِ، وَانْتِبَاهِهِ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَتَأَهُّبِهِ لِلِّقَاءِ.

وَالْقُوَّةُ تُوجِبُ لَهُ الصِّدْقَ، وَصِحَّةَ الْمَعْرِفَةِ، وَقَهْرَ دَاعِي الْغَيِّ وَالْعَنَتِ، وَضَبْطَ النَّفْسِ عَنْ جَزَعِهَا وَهَلَعِهَا، وَاسْتِرْسَالِهَا فِي النَّقَائِضِ وَالْعُيُوبِ؛ وَلِذَلِكَ ازْدَادَ بِالسَّكِينَةِ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِ.

وَالْإِيمَانُ يُثْمِرُ لَهُ النُّورَ وَالْحَيَاةَ وَالْقُوَّةَ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ تُثَمِّرُهُ -أَيْضًا-، وَتُوجِبُ زِيَادَتَهُ، فَهُوَ مَحْفُوفٌ بِهَا قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا.

فَبِالنُّورِ يَكْشِفُ دَلَائِلَ الْإِيمَانِ، وَبِالْحَيَاةِ يَتَنَبَّهُ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَيَصِيرُ يَقْظَانًا، وَبِالْقُوَّةِ يَقْهَرُ الْهَوَىٰ وَالنَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ، كَمَا قِيلَ:

وَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّحْمَنِ لَيْسَتْ ... تُحَصَّلُ بِاجْتِهَادٍ أَوْ بِكَسْبِ
وَلَكِنْ لَا غِنَىٰ عَنْ بَذْلِ جُهْدٍ ... بِإِخْلَاصٍ وَجِدٍّ لَا بِلَعْبِ
وَفَضْلُ اللهِ مَبْذُولٌ وَلَكِنْ ... بِحِكْمَتِهِ وَعَنْ ذَا النَّصُّ يُنْبِي
فَمَا مِنْ حِكْمَةِ الرَّحْمَنِ وَضْعُ الْـ ... كَوَاكِبِ بَيْنَ أَحْجَارٍ وَتُرْبِ
فَشُكْرًا لِلَّذِي أَعْطَاكَ مِنْهُ ... فَلَوْ قَبِلَ الْمَحَلُّ لَزَادَ رَبِّي

فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ بِالسَّكِينَةِ -وَهِيَ النُّورُ، وَالْحَيَاةُ، وَالرُّوحُ-؛ سَكَنَ إِلَيْهَا الْعَصِيُّ، وَهُوَ الَّذِي سُكُونُهُ إِلَىٰ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ؛ لِعَدَمِ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، فَلَمَّا سَكَنَتْ سَكِينَةُ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ صَارَ سُكُونُهُ إِلَيْهَا عِوَضَ سُكُونِهِ إِلَىٰ الشَّهَوَاتِ وَالْمُخَالَفَاتِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ وَجَدَ فِيهَا مَطْلُوبَهُ، وَهُوَ اللَّذَّةُ الَّتِي كَانَ يَطْلُبُهَا مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُعِيضُهُ عَنْهَا، فَمُنْذُ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ اعْتَاضَ بِلَذَّتِهَا وَرَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا عَنْ لَذَّةِ الْمَعْصِيَةِ، فَاسْتَرَاحَتْ بِهَا نَفْسُهُ، وَهَاجَ إِلَيْهَا قَلْبُهُ، وَوَجَدَ فِيهَا مِنَ الرَّوْحِ وَالرَّاحَةِ وَاللَّذَّةِ مَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّذَّةِ الْجُسْمَانِيَّةِ النَّفْسَانِيَّةِ، فَصَارَتْ لَذَّتُهُ رُوحَانِيَّةً قَلْبِيَّةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جُسْمَانِيَّةً، فَأَسْلَتْهُ عَنْهَا وَخَلَّصَتْهُ مِنْهَا، فَإِذَا تَأَلَّقَتْ بُرُوقُهَا قَالَ:

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ ... يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

وَإِذَا طَرَقَتْهُ طُيُوفُهَا الْخَيَالِيَّةُ فِي ظَلَامِ لَيْلِ الشَّهَوَاتِ نَادَىٰ لِسَانُ حَالِهِ وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِهِ:

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا ... وَقْتُ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامِ

فَإِذَا وَدَّعَتْهُ، وَعَزَمَتْ عَلَىٰ الرَّحِيلِ، وَوَعَدَتْهُ بِالْمُوَافَاةِ؛ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْآخَرِ:

قَالَتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَىٰ تَرْحَالِهَا مَاذَا تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: أَلَّا تَرْجِعِي

فَإِذَا بَاشَرَتْ هَذِهِ السَّكِينَةُ قَلْبَهُ سَكَّنَتْ خَوْفَهُ، يَسْكُنُ إِلَيْهَا الْخَائِفُ، وَسَلَّتْ حُزْنَهُ؛ فَإِنَّهَا لَا حُزْنَ مَعَهَا، فَهِيَ سَلْوَةُ الْمَحْزُونِ، وَمُذْهِبَةُ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ، وَكَذَلِكَ تُذْهِبُ عَنْهُ وَخَمَ الضَّجَرِ، وَتَبْعَثُ فِيهِ نَشْوَةَ الْعَزْمِ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَرْأَةِ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَإِبَاءِ النَّفْسِ لِلِانْقِيَادِ إِلَيْهِ»[1].(*).

❀❀❀

(١) باختصار من: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٧٠-٤٧٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الطَّرِيقُ إِلَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ| ٢٣-٩-٢٠١٦م.

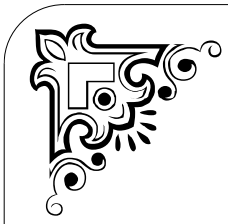

مَنْزِلَةُ الطُّمَأْنِينَةِ

«قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

الطُّمَأْنِينَةُ: سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَىٰ الشَّيْءِ، وَعَدَمُ اضْطِرَابِهِ وَقَلَقِهِ.

وَمِنْهُ الْأَثَرُ الْمَعْرُوفُ «**الصِّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ، وَالْكَذِبُ رِيبَةٌ**»(١). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

أَيِ: الصِّدْقُ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ قَلْبُ السَّامِعِ، وَيَجِدُ عِنْدَهُ سُكُونًا إِلَيْهِ، وَالْكَذِبُ يُوجِبُ لَهُ اضْطِرَابًا وَارْتِيَابًا.

وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّسُولِ: ﷺ: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**»(٢). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالدَّارِمِيُّ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَهُوَ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أَخْرَجَهُ أحمَدُ في «المُسنَدِ»: ٤/ ٢٢٨، والدارمِيُّ في «المُسْنَدِ»: رَقْم (٢٥٧٥)، وحَسَّنَهُ لغيرِهِ الأَلْبَانِيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب»: ٢/ ٣٢٣، رَقْم (١٧٣٤).

«**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**» أَيْ: سَكَنَ إِلَيْهِ وَزَالَ عَنْهُ اضْطِرَابُهُ وَقَلَقُهُ.

وَفِي ذِكْرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ذِكْرُ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ فَإِنَّهُ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَيَسْكُنُ قَلْبُهُ، فَإِذَا اضْطَرَبَ الْقَلْبُ وَقَلِقَ فَلَيْسَ لَهُ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ سِوَىٰ ذِكْرِ اللهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ فِيهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هَذَا فِي الْحَلِفِ وَالْيَمِينِ، إِذَا حَلَفَ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ شَيْءٍ سَكَنَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ وَاطْمَأَنَّتْ، وَيُرْوَىٰ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ هُوَ ذِكْرُ الْعَبْدِ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، يَسْكُنُ إِلَيْهِ قَلْبُهُ وَيَطْمَئِنُّ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ ذِكْرَ اللهِ هَاهُنَا: الْقُرْآنُ، وَهُوَ ذِكْرُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، بِهِ طُمَأْنِينَةُ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ حُصُولِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ إِلَّا مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ سُكُونَ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتَهُ مِنْ يَقِينِهِ، وَاضْطِرَابَهُ وَقَلَقَهُ مِنْ شَكِّهِ، وَالْقُرْآنُ هُوَ الْمُحَصِّلُ لِلْيَقِينِ، الدَّافِعُ لِلشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ وَالْأَوْهَامِ، فَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِهِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمُخْتَارُ.

وَكَذَلِكَ الْقَوْلَانِ -أَيْضًا- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦**﴾ [الزخرف: ٣٦].

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ ذِكْرُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ -وَهُوَ كِتَابُهُ- مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ؛ قَيَّضَ لَهُ شَيْطَانًا يُضِلُّهُ وَيَصُدُّهُ عَنِ السَّبِيلِ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ عَلَىٰ هُدًىٰ.

وَكَذَلِكَ الْقَوْلَانِ -أَيْضًا- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ ذِكْرُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ -وَهُوَ كِتَابُهُ-؛ وَلِهَذَا يَقُولُ الْمُعْرِضُ عَنْهُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٥].

وَأَمَّا تَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَىٰ الْحَلِفِ فَفِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنِ الْمَقْصُودِ؛ فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ بِالْحَلِفِ يَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُؤْمِنُونَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ الصَّادِقِ وَلَوْ لَمْ يَحْلِفْ، وَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ مَنْ يَرْتَابُونَ فِيهِ وَلَوْ حَلَفَ.

وَجَعَلَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- الطُّمَأْنِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَنُفُوسِهِمْ، وَجَعَلَ الْغِبْطَةَ وَالْمِدْحَةَ وَالْبِشَارَةَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ لِأَهْلِ الطُّمَأْنِينَةِ؛ فَطُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهَا لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُطْمَئِنَّةً، فَهُنَاكَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَتَدْخُلُ فِي عِبَادِهِ، وَتَدْخُلُ جَنَّتَهُ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّلَفِ: «اللَّهُمَّ هَبْ لِي نَفْسًا مُطْمَئِنَّةً إِلَيْكَ».

وَالطُّمَأْنِينَةُ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ، مِنْهَا:

الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ: طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللهِ، وَهِيَ طُمَأْنِينَةُ الْخَائِفِ إِلَىٰ الرَّجَاءِ، وَالضَّجِرِ إِلَىٰ الْحُكْمِ، وَالْمُبْتَلَىٰ إِلَىٰ الْمَثُوبَةِ؛ لِأَنَّ الْخَائِفَ إِذَا طَالَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ

وَاشْتَدَّ بِهِ، وَأَرَادَ اللهُ ﷻ أَنْ يُرِيحَهُ وَيَحْمِلَ عَنْهُ؛ أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ، فَاسْتَرَاحَ قَلْبُهُ إِلَىٰ الرَّجَاءِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ، وَسَكَنَ لَهِيبُ خَوْفِهِ.

وَأَمَّا طُمَأْنِينَةُ الضَّجِرِ إِلَىٰ الْحُكْمِ فَالْمُرَادُ بِهَا: أَنَّ مَنْ أَدْرَكَهُ الضَّجَرُ مِنْ قُوَّةِ التَّكَالِيفِ، وَأَعْبَاءِ الْأَمْرِ وَأَثْقَالِهِ؛ لَا سِيَّمَا مَنْ أُقِيمَ مُقَامَ التَّبْلِيغِ عَنِ اللهِ، وَمُجَاهَدَةِ أَعْدَاءِ اللهِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ مَا يَحْمِلُهُ وَيَتَحَمَّلُهُ فَوْقَ مَا يَحْمِلُهُ النَّاسُ وَيَتَحَمَّلُونَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَهُ الضَّجَرُ، وَيَضْعُفَ صَبْرُهُ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُرِيحَهُ وَيَحْمِلَ عَنْهُ؛ أَنْزَلَ عَلَيْهِ سَكِينَتَهُ، فَاطْمَأَنَّ إِلَىٰ حُكْمِهِ الدِّينِيِّ، وَحُكْمِهِ الْقَدَرِيِّ، وَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ بِدُونِ مُشَاهَدَةِ الْحُكْمَيْنِ.

وَأَمَّا طُمَأْنِينَةُ الْمُبْتَلَىٰ إِلَىٰ الْمَثُوبَةِ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُبْتَلَىٰ إِذَا قَوِيَتْ مُشَاهَدَتُهُ لِلْمَثُوبَةِ سَكَنَ قَلْبُهُ، وَاطْمَأَنَّ بِمُشَاهَدَةِ الْعِوَضِ، وَإِنَّمَا يَشْتَدُّ بِهِ الْبَلَاءُ إِذَا غَابَ عَنْهُ مُلَاحَظَةُ الثَّوَابِ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ فِي الشَّوْقِ إِلَىٰ مَا وُعِدَتْ بِهِ؛ بِحَيْثُ لَا تَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهَا، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُشْتَاقٍ إِلَىٰ مَحْبُوبٍ وُعِدَ بِحُصُولِهِ؛ إِذْ تَحْدُثُ الطُّمَأْنِينَةُ بِسُكُونِ نَفْسِهِ إِلَىٰ وَعْدِ اللِّقَاءِ، وَالْعِلْمِ بِحُصُولِ الْمَوْعُودِ بِهِ»[1]. (*).

❀❀❀

(١) باختصار من: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٧٩-٤٨٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الطَّرِيقُ إِلَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ| ٢٣-٩-٢٠١٦م.

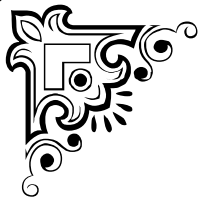

الطَّرِيقُ إِلَى السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ

لَقَدْ جَاءَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ الْعَظِيمُ لِنَفْعِ النَّاسِ، وَمَتَى مَا أَخَذُوا بِتَعَالِيمِهِ عَاشُوا حَيَاةَ السُّعَدَاءِ، وَكَانُوا مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ، وَلِنُزُولِ السَّكِينَةِ فِي الْقَلْبِ، وَحُلُولِ الطُّمَأْنِينَةِ فِي النَّفْسِ أَسْبَابٌ يَنْبَغِي أَنْ تُحَصَّلَ، وَسُبُلٌ يَنْبَغِي أَنْ تُلْتَمَسَ، وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ تَحْصِيلِ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ: التَّوْحِيدُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

«﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ أَيْ: يَخْلِطُوا ﴿إِيمَٰنَهُم﴾ بِظُلْمٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾: الْأَمْنُ مِنَ الْمَخَاوِفِ وَالْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ، وَالْهِدَايَةُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنْ كَانُوا لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ مُطْلَقًا، لَا بِشِرْكٍ وَلَا بِمَعَاصٍ؛ حَصَلَ لَهُمُ الْأَمْنُ التَّامُّ، وَالْهِدَايَةُ التَّامَّةُ.

وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِالشِّرْكِ وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ؛ حَصَلَ لَهُمْ أَصْلُ الْهِدَايَةِ وَأَصْلُ الْأَمْنِ؛ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ كَمَالُهَا.

وَمَفْهُومُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمُ الْأَمْرَانِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ هِدَايَةٌ وَلَا أَمْنٌ، بَلْ حَظُّهُمُ الضَّلَالُ وَالشَّقَاءُ»(١).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢٩٣).

فَالتَّوْحِيدُ أَعْظَمُ سُبُلِ الْوُصُولِ إِلَى السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ؛ فَـ«لَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَىٰ الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ.

وَاللهُ -تَعَالَىٰ- إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النَّحل: ٩٧].

فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَبِالْحُسْنَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النَّحل: ٣٠].

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فَفَازَ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَصَلُوا عَلَىٰ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ؛ فَإِنَّ طِيبَ النَّفْسِ، وَسُرُورَ الْقَلْبِ، وَفَرَحَهُ، وَلَذَّتَهُ، وَابْتِهَاجَهُ، وَطُمَأْنِينَتَهُ، وَانْشِرَاحَهُ، وَنُورَهُ، وَسَعَتَهُ، وَعَافِيَتَهُ مِنْ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ، هُوَ النَّعِيمُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَلَا نِسْبَةَ لِنَعِيمِ الْبَدَنِ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ كَانَ يَقُولُ بَعْضُ مَنْ ذَاقَ هَذِهِ اللَّذَّةَ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ».

وَقَالَ آخَرُ: «إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ».

وَقَالَ آخَرُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً هِيَ كَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ تِلْكَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ».

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ هَذِهِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا**».

قَالُوا: «وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟».

قَالَ: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»(١). وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ لِغَيْرِهِ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ»(٣).(*).

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: (٥/ ٥٣٢، رقم ٣٥١٠)، وأحمد في «**المسند**»: (٣/ ١٥٠، رقم ١٢٥٢٣)، وَأَبُو يَعْلَىٰ في «**المسند**»: (٦/ ١٥٥، رقم ٣٤٣٢)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «**الشُّعَبِ**»: (٢/ ٦٦ - ٦٧، رقم ٥٢٦).

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَحَسَّنَهُ لِغَيْرِهِ الأَلْبَانِيُّ في «**الصحيحة**»: (٦/ ١٣٠، رقم ٢٥٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١).

(٣) «الداء والدواء» لابن القيم (ص: ١٢٠-١٢١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الطَّرِيقُ إِلَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ| ٢٣-٩-٢٠١٦م.

مِنْ أَسْبَابِ رَاحَةِ النَّفْسِ وَطُمَأْنِينَتِهَا: الْإِيمَانُ بِاللهِ.. لِلْإِيمَانِ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالنَّتَائِجِ الطَّيِّبَةِ وَالْفَوَائِدِ الْمُبَارَكَةِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَىٰ، فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَمَرَدُّهُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْيَقِينِ الْحَقِّ.

الْإِيمَانُ الصَّادِقُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَبْعَثُ الطُّمَأْنِينَةَ فِي الْقَلْبِ، وَالسَّكِينَةَ فِي الْقَلْبِ، وَالرِّضَا بِالْأَقْدَارِ، وَيَقِي صَاحِبَهُ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَآفَاتِهَا، وَمِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ.

وَبِالْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَحْدَهُ يَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَشَدَائِدِهَا، وَمِحَنِهَا وَفِتَنِهَا.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ؛ فَالْإِيمَانُ الصَّادِقُ هُوَ الْأَمْنُ وَالسَّلَامَةُ مِنْ وَحْشَةِ الْقَبْرِ وَمِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَبِهِ وَحْدَهُ يَنَالُ الْعَبْدُ رِضْوَانَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَجَنَّةَ الْخُلْدِ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً، وَيُحَصِّلُ بِهِ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ السَّرْمَدِيَّةَ.

عَنْ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧٦].

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي الْكِتَابِ الْمَجِيدِ.

وَعَنْ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْقَبْرِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَعَنْ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

وَعَنْ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْحِسَابِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٧].

وَبَعْدَ الْحِسَابِ ذَكَرَ اللهُ جَزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]. (*).

وَمِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ الْوُصُولِ إِلَى السَّكِينَةِ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ؛ فَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ النَّفْسِيَّةِ: سُكُونُ الْقَلْبِ، وَطُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ، وَرَاحَةُ الْبَالِ.

هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَهِيَ مَطْلَبٌ مُلِحٌّ، وَهَدَفٌ مَنْشُودٌ، وَغَايَةٌ مُبْتَغَاةٌ، فَكُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغِيهَا،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «مِنْ مَبَاحِثِ الْإِيمَانِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةُ: مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ وَفَوَائِدِهِ)، الْخَمِيسُ ١١ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٨هـ| ٣-٨-٢٠١٧م.

وَيَبْحَثُ عَنْهَا، وَيَسْعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا؛ وَلَكِنْ كَمَا قِيلَ:

كُلٌّ مَنْ فِي الْوُجُودِ يَطْلُبُ صَيْدًا غَيْرَ أَنَّ الشِّبَاكَ مُخْتَلِفَاتُ

فَلَا يُدْرِكُ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَلَا يَجِدُ حَلَاوَتَهَا، وَلَا يَعْلَمُ ثَمَرَاتِهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَالْمُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ سَاكِنُ الْقَلْبِ، مُطْمَئِنُّ النَّفْسِ، مُرْتَاحُ الْبَالِ، لَا يُفَكِّرُ كَثِيرًا فِي احْتِمَالِ الشَّرِّ، ثُمَّ إِنْ وَقَعَ لَمْ يَطِرْ لَهُ قَلْبُهُ شَعَاعًا، بَلْ يَتَحَمَّلُ ذَلِكَ بِثَبَاتٍ وَصَبْرٍ، إِنْ مَرِضَ لَمْ يُضَاعِفْ مَرَضَهُ بِوَهْمِهِ، وَإِنْ نَزَلَ بِهِ مَكْرُوهٌ قَابَلَهُ بِجَأْشٍ رَابِطٍ فَخَفَّفَ حِدَّتَهُ، فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَلَّا يَجْمَعَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَيْنَ الْأَلَمِ بِتَوَقُّعِ الشَّرِّ وَالْأَلَمِ بِحُصُولِ الشَّرِّ، بَلْ يَسْعَدُ مَا دَامَتْ أَسْبَابُ الْحُزْنِ بَعِيدَةً عَنْهُ، فَإِذَا حَدَثَتْ قَابَلَهَا بِشَجَاعَةٍ وَاعْتِدَالٍ.

وَإِنَّكَ لَتَجِدُ عِنْدَ خَوَاصِّ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَالْعُبَّادِ الْقَانِتِينَ الْمُتَّبِعِينَ مِنْ سُكُونِ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالٍ، وَلَا يَدُورُ حَوْلَ مَا يُشْبِهُهُ خَيَالٌ؛ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الشَّأْنِ الْقِدْحُ الْمُعَلَّىٰ وَالنَّصِيبُ الْأَوْفَىٰ.

وَهَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «أَصْبَحْتُ وَمَا لِي سُرُورٌ إِلَّا فِي مَوَاضِعِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ».

وَهَذَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ».

وَيَقُولُ مَقُولَتَهُ الْمَشْهُورَةَ عِنْدَمَا زُجَّ بِهِ فِي غَيَاهِبِ السِّجْنِ: «مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي؟! أَنَا جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِي، أَيْنَ رُحْتُ فَهِيَ مَعِي لَا تُفَارِقُنِي، أَنَا

حَبْسِي خَلْوَةٌ، وَقَتْلِي شَهَادَةٌ، وَإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ».

بَلْ إِنَّكَ وَاجِدٌ عِنْدَ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ سُكُونِ الْقَلْبِ، وَرَاحَةِ الْبَالِ، وَبَرْدِ الْيَقِينِ مَا لَا تَجِدُهُ عِنْدَ كِبَارِ الْمُفَكِّرِينَ، وَالْكُتَّابِ وَالْأَطِبَّاءِ النَّفْسِيِّينَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَكَمْ مِنَ الْأَطِبَّاءِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ -عَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ- مَنْ يَعْجَبُ وَيَذْهَبُ بِهِ الْعَجَبُ كُلَّ مَذْهَبٍ إِذَا أَشْرَفَ عَلَىٰ عِلَاجِ مَرِيضٍ مُسْلِمٍ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مُصَابٌ بِدَاءٍ خَطِيرٍ، فَتَرَىٰ هَذَا الطَّبِيبَ يَحْتَارُ فِي كَيْفِيَّةِ إِخْبَارِ الْمَرِيضِ بِعِلَّتِهِ، فَتَجِدُهُ يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ، وَتَجِدُهُ يُمَهِّدُ الطَّرِيقَ، وَيَضَعُ الْمُقَدِّمَاتِ، وَكُلُّ ذَلِكَ خَشْيَةً مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِ الْمَرِيضِ بِسَمَاعِ هَذَا الْخَبَرِ، وَمَا إِنْ يُعْلِمُهُ هَذَا الطَّبِيبُ بِمَرَضِهِ وَيُصَارِحُهُ بِعِلَّتِهِ إِلَّا وَيُفَاجَأُ بِأَنَّ هَذَا الْمَرِيضَ يَسْتَقْبِلُ الْخَبَرَ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ، وَصَدْرٍ رَحْبٍ، وَسَكِينَةٍ عَجِيبَةٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ إِيمَانِهِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.(*).

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُورِثُ الْمُؤْمِنَ طُمَأْنِينَةَ النَّفْسِ، وَرَاحَةَ الْبَالِ، وَيَقْضِي عَلَىٰ الْقَلَقِ وَالْيَأْسِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْتَقِدُ بِسَعَةِ عِلْمِ اللهِ، وَأَنَّ الْخَيْرَ فِيمَا اخْتَارَهُ اللهُ لَهُ، وَأَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ -سُبْحَانَهُ-.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

فَالْعَبْدُ جَاهِلٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، عَاجِزٌ عَنْ تَحْصِيلِ مَصَالِحِهِ، وَدَفْعِ مَضَارِّهِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُحَاضَرَة: «مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ النَّفْسِيَّةِ: سُكُونُ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَرَاحَةُ الْبَالِ» - الْأَحَدُ ٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٤٢هـ| ١٣-٦-٢٠٢١م.

بِنَفْسِهِ، لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا الَّتِي تُجْهَلُ عَاقِبَتُهَا؛ لِهَذَا شُرِعَتْ الِاسْتِخَارَةُ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا، وَشُرِعَ أَنْ يَقُولَ الدَّاعِي فِي اسْتِخَارَتِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ -وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ- خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**»(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.(*).

وَمِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ تَحْصِيلِ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ: الصَّلَاةُ؛ فَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ بِهَا قُرَّةَ الْعَيْنِ، وَطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ، وَرَاحَةَ النَّفْسِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «سُنَنِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ وَغَيْرُهُ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُحَاضَرَة: «مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ» - السَّبْتُ ١ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٤٢هـ| ١٢-٦-٢٠٢١م.

(٣) كَمَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «**الْمُجْتَبَىٰ**»: (٧/ ٦١، رقم ٣٩٣٩) من حديث أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**». وَالْحَدِيثُ حَسَّنَ إِسْنَادَهُ الْأَلبانيُّ في هامشِ «**المشكاة**»: (٣/ ١٤٤٨، رقم ٥٢٦١).

وَكَانَ يَقُولُ: «**قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَتَفَرَّدَ بِهِ، وَنَصُّهُ عِنْدَهُ: «**يَا بِلَالُ! أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا**». وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ(١).

فَالصَّلَاةُ ذِكْرٌ، وَبِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، وَصِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، يَقُومُ الْمُصَلِّي بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ خَاشِعًا ذَلِيلًا، يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَيَتْلُو كِتَابَهُ، وَيُعَظِّمُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَيَسْأَلُهُ حَاجَاتِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ؛ فَالصَّلَاةُ رَوْضَةٌ يَانِعَةٌ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.(*).

وَلَا شَكَّ أَنَّ ذِكْرَ اللهِ ﷻ وَاسْتِحْضَارَ عَظَمَتِهِ وَمَعِيَّتِهِ سَبَبٌ لِتَحَقُّقِ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، فَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَحْيَا الْقُلُوبُ، حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٣): «أَيْ: حَقِيقٌ بِهَا وَحَرِيٌّ أَلَّا تَطْمَئِنَّ لِشَيْءٍ سِوَىٰ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَلَذَّ لِلْقُلُوبِ وَلَا أَشْهَىٰ وَلَا أَحْلَىٰ مِنْ مَحَبَّةِ خَالِقِهَا، وَالْأُنْسِ بِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مَعْرِفَتِهَا بِاللهِ وَمَحَبَّتِهَا لَهُ يَكُونُ ذِكْرُهَا لَهُ، ذَلِكَ عَلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ ذِكْرَ اللهِ ذِكْرُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ مِنْ تَسْبِيحٍ، وَتَهْلِيلٍ، وَتَكْبِيرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «**السُّنَنِ**»: (٤/ ٢٩٦، رقم ٤٩٨٥)، من طريق: سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**».
والحديث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ**»: (٣/ ٢٢٥، رقم ٤٩٨٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ كِتَاب: «صِفَةُ الصَّلَاةِ» - الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ - الثُّلَاثَاءُ ٢٩ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَة ١٤٣٥هـ| ٢٩-٤-٢٠١٤م.

(٣) «**تيسير الكريم الرحمن**»: (ص٤١٧).

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذِكْرِ اللهِ كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَعَلَىٰ هَذَا مَعْنَىٰ طُمَأْنِينَةِ الْقُلُوبِ بِذِكْرِ اللهِ: أَنَّهَا حِينَ تَعْرِفُ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامَهُ تَطْمَئِنُّ لَهَا؛ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ الْمُؤَيَّدِ بِالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ؛ فَبِذَلِكَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَطْمَئِنُّ إِلَّا بِالْيَقِينِ وَالْعِلْمِ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ مَضْمُونٌ عَلَىٰ أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ فَلَا تَطْمَئِنُّ بِهَا، بَلْ لَا تَزَالُ قَلِقَةً مِنْ تَعَارُضِ الْأَدِلَّةِ وَتَضَادِّ الْأَحْكَامِ». (*).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ**(٢) **عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**(٣)، **وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**(٤)، **وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**(٥)، **وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ**

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِن: «شَرْحُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ» (الْمُحَاضَرَةُ الأُولَىٰ: مُقَدِّمَةُ الْمُصَنِّفِ)، الْأَحَدُ ١٩ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٨هـ| ١٠-٩-٢٠١٧م.

(٢) «**مَنْ نَفَّسَ**» بِالتَّشْدِيدِ أَيْ: مَنْ أَزَالَ وَأَذْهَبَ وَفَرَّجَ.

(٣) «**كُرْبَةً**»، أَيْ: أَيَّ حَزَنٍ وَعَنَاءٍ وَشِدَّةٍ وَلَوْ حَقِيرَةً، «**مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا**»: الْفَانِيَةِ الْمُنْقَضِيَةِ، «**نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً**» أَيْ: عَظِيمَةً «**مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، أَيِ: الْبَاقِيَةِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ.

(٤) «**وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ**»، أَيْ: سَهَّلَ عَلَىٰ فَقِيرٍ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، أَيْ: مَنْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَىٰ فَقِيرٍ فَسَهَّلَ عَلَيْهِ بِإِمْهَالٍ أَوْ بِتَرْكِ بَعْضِهِ أَوْ كُلِّهِ، «**يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ**» بَدَّلَ تَيْسِيرَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ مُجَازَاةً بِجِنْسِهِ، «**فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»، أَيْ: فِي الدَّارَيْنِ أَوْ فِي أُمُورِهَا.

(٥) «**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا**»، أَيْ: فِي قَبِيحٍ يَفْعَلُهُ فَلَا يَفْضَحُهُ أَوْ كَسَاهُ ثَوْبًا، «**سَتَرَهُ اللهُ**» أَيْ: عُيُوبَهُ أَوْ عَوْرَتَهُ «**فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**».

طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ(١) يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ(٢)». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا(٤)**».

قَالُوا: «وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟».

---

(١) «**مِنْ بُيُوتِ اللهِ**» بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا.

(٢) «**وَمَنْ بَطَّأَ...**» بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ مِنَ التَّبْطِئَةِ ضِدِّ التَّعَجُّلِ، وفي رواية عند أبي داود: «**وَمَنْ أَبْطَأَ...**»، ولأحمد: «**وَمَنْ يُبْطِئْ بِهِ عَمَلُهُ**»، أَيْ: مَنْ أَخَّرَهُ وَجَعَلَهُ بَطِيئًا عَمَلُهُ السَّيِّئُ وتفريطُه فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنْ يُبْلَغَ بِهِ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَالْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟**﴾ [الأنعام: ١٣٢]، «**لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**» مِنَ الْإِسْرَاعِ، أَيْ: لَمْ يُقَدِّمْهُ نَسَبُهُ فَيُبَلِّغَهُ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، لَا عَلَىٰ الْأَنْسَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾**﴾ [المؤمنون: ١٠١].

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ**» مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ، أَوْ بِمَا يُوصِلُ إِلَيْهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ، «**فَارْتَعُوا**» الرَّتَعُ: الاتِّساعُ فِي الخِصْب، وَكُلُّ مُخْصِب مُرْتعٌ، فَشبَّه الْخَوْضَ فِي ذِكرِ اللهِ بالرَّتع فِي الخِصْب، والمعنىٰ: اغْتَنِمُوا الْحَظَّ الْأَوْفَرَ وَالنَّصِيبَ الْأَوْفَىٰ الْحَاصِلَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ وَأَصْنَافِ الذِّكْرِ وَفُنُونِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ.

قَالَ: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**(١)»(٢). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرمِذِيُّ، وَأَبُو يَعْلَىٰ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ»، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ.

الذِّكْرُ يُرضِي الرَّحْمَنَ ﷻ.

ويُزِيلُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ عَنِ الْقَلْبِ.

وَيَجْلِبُ لِلْقَلْبِ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَالْبَسْطَ.

والذِّكرُ سَبَبٌ لِتَنَزُّلِ السَّكِينَةِ، وَغِشْيَانِ الرَّحْمَةِ، وَحُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ بِالذَّاكِرِ.(*).

وَالصِّدْقُ مِنْ سُبُلِ تَحْصِيلِ طُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ، وَرَاحَةِ الْقَلْبِ، وَسُكُونِ الرُّوحِ وَالضَّمِيرِ؛ قال ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ**»(٤)؛ فَالْخَيْرُ تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ، وَالشَّرُّ تَرْتَابُ بِهِ وَلَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَعَلَامَةُ الصِّدْقِ أَنَّهُ تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ، وَعَلَامَةُ الْكَذِبِ أَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ الرِّيبَةُ، فَلَا تَسْكُنُ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، بَلْ تَنْفِرُ الْقُلُوبُ مِنْهُ.(*/٢).

---

(١) «**حِلَقُ الذِّكْرِ**» بِكَسْرِ الْحَاءِ وَيجوز فتحها وَفَتْحِ اللَّام، جَمْعُ «الْحلقَةِ» بكسر الحاء وفتحها، وتسكين اللام وفتحها، وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ يَسْتَدِيرُونَ كَحَلْقَةِ الْبَابِ ونحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «ذِكْرُ اللهِ وَظِيفَةُ الْحَيَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٢٤ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٨هـ| ١٥-٩-٢٠١٧م.

(٤) تقدم تخريجه.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِن: «شَرْحُ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ» (الْحَدِيثُ ١١: دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ) - الثُّلَاثَاءُ ٢٢ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٥هـ| ٢٦-١١-٢٠١٣م.

فَبِهَذَا تَتَحَصَّلُ هَذِهِ الْمَنَازِلُ الْعَالِيَةُ مِنَ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالْخُشُوعِ وَمَا أَشْبَهَ، وَكُلُّهَا يَنْبَغِي عَلَىٰ السَّائِرِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَعْرِفَهَا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الطَّرِيقُ إِلَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ| ٢٣-٩-٢٠١٦م.

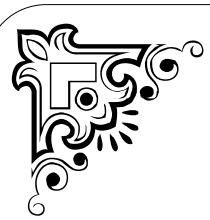

مِنْ ثَمَرَاتِ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ لِلسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ ثَمَرَاتٍ عَظِيمَةً دُنْيَا وَآخِرَةً؛ فَـ«السَّكِينَةُ تُثَبِّتُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَزِيدُهُمْ ثِقَةً وَإِيمَانًا، وَتُؤَدِّيٰ إِلَىٰ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللهُ ﷻ.

السَّكِينَةُ تُثْمِرُ الْخُشُوعَ، وَتَجْلِبُ الطُّمَأْنِينَةَ، وَتُلْبِسُ صَاحِبَهَا ثَوْبَ الْوَقَارِ، وَتُسَكِّنُ الْخَائِفَ، وَتُسَلِّي الْحَزِينَ وَالضَّجِرَ(١).

وَالطُّمَأْنِينَةُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا، وَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَىٰ النُّفُوسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، وَهِيَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ، وَدَلِيلُ فَلَاحِهِ.

وَالطُّمَأْنِينَةُ طَرِيقٌ مُوصِلٌ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَدَلِيلُ الْيَقِينِ وَالْوَقَارِ.

وَالطُّمَأْنِينَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ دَلِيلُ رِضَا اللهِ ﷻ، وَبُشْرَىٰ لِصَاحِبِهَا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ(٢).

السَّكِينَةُ إِذَا نَزَلَتْ عَلَىٰ الْقَلْبِ اطْمَأَنَّ بِهَا، وَسَكَنَتْ إِلَيْهَا الْجَوَارِحُ وَخَشَعَتْ، وَاكْتَسَبَتِ الْوَقَارَ، وَأَنْطَقَتِ اللِّسَانَ بِالصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِ

---

(١) «نضرة النعيم» (٦/ ٢٢٧١).

(٢) «نضرة النعيم» (٧/ ٢٧١١).

الْخَنَا وَالْفُحْشِ، وَاللَّغْوِ وَالْهَجْرِ، وَكُلِّ بَاطِلٍ(١).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَشْرَحَ صُدُورَنَا لِلْهُدَىٰ، وَأَنْ يَجْعَلَ قُلُوبَنَا مُطْمَئِنَّةً بِذِكْرِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*).

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٧٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الطَّرِيقُ إِلَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ| ٢٣-٩-٢٠١٦م.

عِبَادَاتُ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ

الْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- جَعَلَ لَنَا فِي نَبِيِّنَا ﷺ أُسْوَةً، وَقُدْوَةً، وَنُمُوذَجًا، وَمِثَالًا.

وَلَيْسَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ ابْنُ أُنْثَىٰ حُفِظَتْ أَحْوَالُهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، جَلِّيَّةً وَخَفِيَّةً فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ سِوَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَهَذَا لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الْإِعْجَازِ فِيهِ، وَلَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الدَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِهِ، وَصِدْقِهِ فِيمَا بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-؛ إِذْ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّأَمُّلِ أَنْ يُحْصَيَ أَحْوَالَ نَبِيِّهِ ﷺ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَنَا فِي نَبِيِّنَا ﷺ صُورَةً تَفْصِيلِيَّةً؛ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ بِهِ أَنْفُسَنَا مِنَ الْعِبَادَةِ فِي الْمَوَاسِمِ الشَّرِيفَةِ، وَالْأَيَّامِ الَّتِي أَكْرَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا خَلْقَهُ، فَضَاعَفَ فِيهَا الْأَجْرَ، وَأَجْزَلَ فِيهَا الْمَثُوبَةَ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ ١».

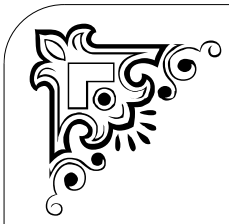

إِدْرَاكُ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ

اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ مَنَّ عَلَيْنَا فَمَدَّ فِي أَعْمَارِنَا، وَقَدْ أَظَلَّتْنَا أَيَّامٌ عَظِيمَةٌ وَسَاعَاتٌ جَلِيلَةٌ، إِنَّهَا أَيَّامُ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَهِيَ بِدَايَةُ نِهَايَةِ الشَّهْرِ الْعَظِيمِ.(*).

وَصِيَامُ رَمَضَانَ مَا يَزَالُ يَرْتَقِي بِالنَّفْسِ فِي مَدَارِجِ الكَمَالِ؛ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الصَّائِمُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَفِيهَا الِاعْتِكَافُ؛ لِعُكُوفِ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ، وَلِجَمْعِيَّةِ القَلْبِ عَلَىٰ سَيِّدِهِ وَمَولَاهُ، وَلِلفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ مَرْضَاةِ اللهِ، وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهُ تَعَالَىٰ فِي عُلَاهُ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «الْعَشْر الْأَوَاخِر مِنْ رَمَضَانَ» - الجُمُعَة ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٧هـ/ ٢٤-٦-٢٠١٦م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصَّائِمُونَ المُفْلِسُون» - الْجُمُعَة ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٢هـ/ ١٩-٨-٢٠١١م.

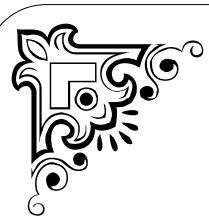
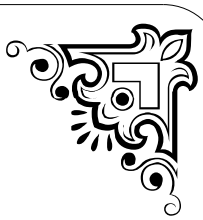

عِبَادَاتُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ

عِبَادَ اللهِ! النَّبِيُّ ﷺ فِي لَمْحَةٍ عَابِرَةٍ، وَلَكِنَّهَا مُفَصَّلَةٌ، تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ -يَعْنِي مِنْ أَيَّامِ الْعَامِ-»(١).

فَكَيْفَ كَانَ اجْتِهَادُهُ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْسِمِ الشَّرِيفِ؟

تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **-كَمَا فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ عَنْهَا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَشَدَّ مِئْزَرَهُ»(٢).

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَيْقَظَ أَهْلَهُ؛ بِإِشَاعَةِ جَوٍّ مِنْ أَجْوَاءِ الْإِيمَانِ اللَّطِيْفِ فِي أَبْيَاتِ أَزْوَاجِهِ -رِضْوَانُ اللهِ عَنْهُنَّ-.

وَبِذَلِكَ يَكُونُ الشَّأْنُ فِي بَيْتِ كُلِّ مُسْلِمٍ يُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: ٢/ ٨٣٢، رقم (١١٧٥)، من حديث: عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ**».

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٤/ ٢٦٩، رقم (٢٠٢٤) واللفظ له، ومسلم في «**الصحيح**»: ٢/ ٨٣٢، رقم (١١٧٤).

وفي رواية مسلم: «**إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ**».

فَالنَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ؛ أَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ.

وَلَا يُعَارِضُ هَذَا رِوَايَةُ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَفِيهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا قَامَ لِلَّهِ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّىٰ يُصْبِحَ»(١)؛ لِأَنَّ الْقِيَامَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي لَيَالِي الْعَشْرِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الْقِيَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي حَالِ صَلَاةٍ، وَإِنَّمَا تِلَاوَةٌ، وَمُدَارَسَةٌ لِلْقُرْآنِ، وَذِكْرٌ لِلرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، وَتَبَتُّلٌ وَتَفَكُّرٌ.

حَتَّىٰ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ -كَمَا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَهِيَ رِوَايَةٌ صَحِيحَةٌ- قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ لَوْ عَلِمْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ، مَاذَا أَقُولُ؟

فَاخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ -لِلْحَبِيبَةِ بِنْتِ الْحَبِيبِ رضي الله عنها- اخْتَارَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ دُعَاءً جَامِعًا، قَالَ: «قَولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: ١/ ٥١٤، رقم (٧٤٦)، بلفظ: «...، **لَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، وَلَا صَلَّىٰ لَيْلَةً إِلَىٰ الصُّبْحِ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ**،... ».

(٢) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٥٣٤، رقم (٣٥١٣)، وابن ماجه في «**السنن**»: ٢/ ١٢٦٥، رقم (٣٨٥٠)، من حديث: عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**».

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: ٧/ ١٠٠٨، رقم (٣٣٣٧).

الرَّسُولُ ﷺ كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ بِطُولِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي مَا شَاءَ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- أَنْ يُصَلِّيَ.

«يُوقِظُ أَهْلَهُ»: وَيُشِيعُ جَوًّا مِنْ أَجْوَاءِ الْإِيمَانِ اللَّطِيفِ، حَتَّىٰ لَيَكَادَ الْمَرْءُ يُبْصِرُ كَفَّهُ فِي ظُلُمَاتٍ مِنْ فَوْقِهَا ظُلُمَاتٌ؛ لِأَنَّ الْأَبْيَاتَ حِينَئِذٍ تَكُونُ مُنِيرَةً بِأَنْوَارِ الْإِيمَانِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ ١».

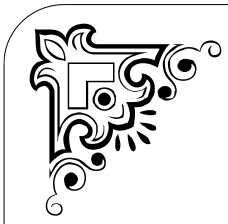

مِنْ عِبَادَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَمَضَانَ: مُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ

عِبَادَ اللهِ! لَقَدْ كَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فِي رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ يَتَلَقَّىٰ الْوَحْيَ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ﷻ يَنْزِلُ بِآيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ قَلْبِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

فَمُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ عِبَادَةٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَخْصُوصَةِ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ.

«وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا كَانَتِ السَّنَةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ﷺ عَرَضَ الْقُرْآنَ

---

(١) أخرج البخاري في «**الصحيح**»: ١/ ٣٠، رقم (٦)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٤/ ١٨٠٣، رقم (٢٣٠٨)، حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ**».

وفي رواية لهما: «...، **إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ**،... ».

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٦/ ٦٣٨، رقم (٣٦٢٣)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٤/ ١٩٠٤، رقم (٢٤٥٠)، من حديث: عَائِشَةَ، عَنْ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ، قَالَتْ: أَسَرَّ =

فَمُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ إِحْيَاءِ اللَّيْلِ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ.(*).

=

إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي القُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي**،...»، الحديث.

والحديث في «صحيح البخاري»، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ ٢».

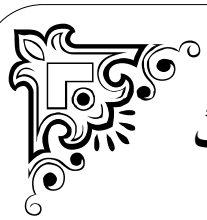

مِنْ عِبَادَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَشْرِ: الاعْتِكَافُ

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ(١)؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ﷺ مُسَافِرًا فِي جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ لِغَزْوٍ، لِالْتِمَاسِ مَرْضَاةِ اللهِ.

فَالِاعْتِكَافُ سُنَّةٌ مِنَ السُّنَنِ الثَّابِتَةِ، دَلَّ عَلَيْهَا كِتَابُ رَبِّنَا، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ.

وَالْمَقْصِدُ الْأَجَلُّ: تَفْرِيغُ الْقَلْبِ لِلْعُكُوفِ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ؛ لِالْتِمَاسِ الْأَجْرِ بِتَحَرِّي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَبِالْبُعْدِ عَنِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ مَآسِيهَا وَمَبَاهِرِهَا، بِكُلِّ مَا يَشْغَلُ الْقَلْبَ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ وَطَلَبِ الْآخِرَةِ.(*).

فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْلُو بِرَبِّهِ فِي مُعْتَكَفِهِ، كَانَ يُضْرَبُ لَهُ خِبَاءٌ هُنَالِكَ، فَلَا كَلَامَ، لَيْسَ الِاعْتِكَافُ سَمَرًا، وَلَيْسَ الِاعْتِكَافُ مُعْتَلَفًا، إِنَّمَا هُوَ مُعْتَكَفٌ لَا مُعْتَلَفٌ!!

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٣/ ٤٧، رقم (٢٠٢٥)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٢/ ٨٣٠، رقم (١١٧١)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

والحديث أيضا في «الصحيحين» من رواية عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصَّائِمُونَ المُفْلِسُون» - الْجُمُعَة ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٢هـ/ ١٩-٨-٢٠١١م.

وَإِنَّمَا يَتَقَلَّلُ الْعَبْدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ جِدًّا إِنِ اسْتَطَاعَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَلَّنَا عَلَىٰ الْوِصَالِ فِيهِ، فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ مُوَاصِلًا فَلْيُوَاصِلْ إِلَىٰ السَّحَرِ**»؛ يَعْنِي فَلْيَدَعِ الْفُطُورَ جَانِبًا، ثُمَّ فَلْيَكُنْ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ عِنْدَ السَّحَرِ الْأَعْلَىٰ سُحُورًا، كَمَا دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ.

وَيَقُولُ -لِأَنَّهُ هُوَ كَانَ يَطْوِي الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي صَائِمًا، لَا يَطْعَمُ شَيْئًا وَلَا يَشْرَبُهُ- وَلَكِنَّهُ يَقُولُ: «**لَسْتُمْ كَهَيْئَتِي، أَنَا أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**» ﷺ(١).

اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- جَعَلَ لَنَا هَذِهِ الْعِبَادَةَ فِي لَيَالِي الْعَشْرِ؛ قُرْبَةً إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَقَرُّبًا.

ثُمَّ خَلْوَةٌ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِمُرَاجَعَةِ مَا كَانَ هُنَالِكَ مِنْ أَخْطَاءٍ بَلْ مِنْ خَطِيَّاتٍ، مَا كَانَ هُنَالِكَ عَلَىٰ مَدَىٰ الْعَامِ مِنْ تَقْصِيرٍ وَقُصُورٍ، مِنْ كَسَلٍ وَفُتُورٍ؛ بِإِقْبَالٍ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَنَثْرٍ لِلرُّوحِ بِجَنَبَاتِهَا عَلَىٰ عَتَبَاتِ رَحَمَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَنْ أَصْلِحْنِي لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِصْلَاحِي إِلَّا أَنْتَ، وَغَيِّرْ مِنْ حَالِي إِلَىٰ ضَرْبِ الصَّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْخُذُ بِيَدِي إِلَيْهِ إِلَّا أَنْتَ.

يُقْبِلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ طَالِبًا الْعَفْوَ، وَلَا يَطْلُبُ الْعَفْوَ إِلَّا مُقَصِّرٌ مُذْنِبٌ، فَهُوَ اعْتِرَافٌ مُسَبَّقٌ: «**اللهم إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**».(*).

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٤/ ٢٠٢ و٢٠٨، رقم (١٩٦٣ و١٩٦٧)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**لاَ تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُوَاصِلْ حَتَّىَ السَّحَرِ**»، قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِ**».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ ١».

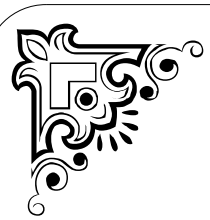

الِاجْتِهَادُ فِي الْعَشْرِ لِإِدْرَاكِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَخُصُّ الْعَشْرَ مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ مِنْ أَلْوَانِ الِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَحَرَّىٰ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ.(*).

وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، قَالَ فِيهَا رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- إِنَّهُ أَنْزَلَ فِيهَا كِتَابَهُ الْمَجِيدَ، وَإِنَّهُ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

وَعَجَّبَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَعَظَّمَ وَفَخَّمَ مِنْ شَأْنِهَا، فَتَسَاءَلَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢].

وَالسُّؤَالُ هَا هُنَا سُؤَالٌ مِنْ أَجْلِ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، فَعَظَّمَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- مِنْ قَدْرِهَا، وَأَعْلَىٰ مِنْ شَرَفِهَا، وَدَلَّ عَلَىٰ عَظِيمِ قَدْرِهَا لَدَيْهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ؛ إِذْ تَتَنَزَّلُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ مَعَ رُوحِ الْقُدُسِ، ثُمَّ هِيَ سَلَامٌ -بِفَضْلِ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

لَا يَكُونُ لِعَبْدٍ فِيهَا مِنْ إِقْبَالٍ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا أَحَاطَ بِهِ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ غُفْرَانٌ، وَتَنَزَّلَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ نُورٌ وَبُرْهَانٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «كَيْفَ تَفُوزُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ؟» - الْجُمُعَة ٢٠ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٧هـ/ ١٣-١٠-٢٠٠٦م.

«**مَنْ حُرِمَ خَيْرُهَا فَقَدْ حُرِمَ**»(١).

«**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢). (*).

وَلَا تَخْتَصُّ لَيْلَةُ الْقَدْرِ بِلَيْلَةٍ مُعيَّنَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَعْوَامِ، بَلْ تَنْتَقِلُ، فَتكُونُ فِي عَامٍ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مَثَلًا، وَفِي عَامٍ لَيْلَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، وَهَكَذَا...تَبَعًا لِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَحِكْمَتِهِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُه ﷺ: «**الْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَىٰ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَىٰ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَىٰ**»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في «**المجتبىٰ**»: ٤/ ١٢٩، رقم (٢١٠٦)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ،...، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ**»، الحديث.

والحديث صححه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ١/ ٥٨٥، رقم (٩٩٩)، وروي عن أنس رضي الله عنه، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ١/ ٩١، رقم (٣٥)، ومسلم في «**الصحيح**»: ١/ ٥٢٣ و ٥٢٤، رقم (٧٦٠)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ ١».

(٣) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٤/ ٢٦٠، رقم (٢٠٢١ و ٢٠٢٢)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَىٰ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَىٰ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَىٰ**».

وفي رواية: «**هِيَ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، هِيَ فِي تِسْعٍ يَمْضِينَ، أَوْ فِي سَبْعٍ يَبْقَيْنَ**»، يَعْنِي: لَيْلَةَ القَدْرِ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الفَتْحِ»(١): «الْأَرْجَحُ: أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ، وَأَنَّهَا تَنْتَقِلُ»»(٢).

فَالْأَرْجَحُ عَلَىٰ حَسَبِ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ: أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأَنَّهَا فِي أَوْتَارِ الْعَشْرِ، وَأَنَّهَا تَنْتَقِلُ؛ فَلَيْسَتْ فِي لَيْلَةٍ بِعَيْنِهَا، تَكُونُ ثَابِتَةً فِي كُلِّ عَامٍ؛ وَلَكِنَّهَا تَنْتَقِلُ كَمَا هُوَ الْأَرْجَحُ.(*).

عِبَادَ اللهِ! هَذَا هُوَ زُبْدَةُ الْعَامِ، وَمَا يَتَمَخَّضُ عَنْهُ الْعَامُ مِنَ الْخَيْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، ثُمَّ فِي الْأَوْتَارِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، ثُمَّ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

نَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُكْرِمَنَا بِشُهُودِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا فِيهَا مِنْ أَهْلِ الْعِتْقِ مِنَ النَّارِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا فِيهَا مِنَ الْخَالِصِينَ الْمُخْلِصِينَ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.(*/٢).

❀❀❀

---

(١) «**فتح الباري**»: ٤/ ٢٦٥ و ٢٦٦.

(٢) «**مجالس شهر رمضان**» ضمن مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين: ٢٠/ ٣٤٧.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصَّائِمُونَ المُفْلِسُون» - الْجُمُعَة ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٢هـ/ ١٩-٨-٢٠١١م.

(*/٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «كَيْفَ تَفُوزُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ؟» - الْجُمُعَة ٢٠ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٧هـ/ ١٣-١٠-٢٠٠٦م.

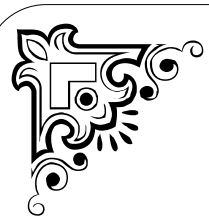
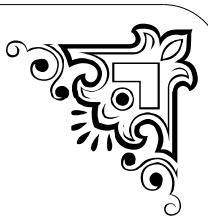

الْإِقْبَالُ عَلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ دُخُولِ الْعَشْرِ

إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ -عَبْدَ اللهِ- فَجَدِّدْ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَوْبَةً؛ لِأَنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ لَا تَلْقَىٰ الْعَشْرَ مِنْ بَعْدِهَا أَبَدًا، حَتَّىٰ يُقِيمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّاعَةَ، وَلَا تَدْرِي لَعَلَّهَا آخِرُ عَشْرٍ تَلْقَاهَا فِي رَمَضَانَ فِي عُمُرِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ تَلْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ.

إِذَنْ؛ فَأَقْبِلْ عَلَىٰ هَذَا الْمَوْسِمِ تَائِبًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُنِيبًا، جَدِّدْ للهِ عَزْمًا، أَقْبِلْ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِقْبَالًا.

خَلِّ الذُّنُوبَ جَانِبًا، وَضَعِ الدُّنْيَا تَحْتَ الْأَقْدَامِ مَوْطِئًا، ثُمَّ أَقْبِلْ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِجَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ، فَفَرِّغْ وِجْهَةَ الْقَلْبِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاطْرَحْ نَفْسَكَ عَلَىٰ عَتَبَاتِ رَحَمَاتِ سَيِّدِكَ.

قُلْ: يَا سَيِّدِي أَصْلِحْنِي، يَا سَيِّدِي غَيِّرْنِي، يَا سَيِّدِي عَافِنِي وَاعْفُ عَنِّي، وَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخْبَرَ عَنْهُ: «**حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: ٢/ ٧٨، رقم (١٤٨٨)، والترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٥٥٦ و٥٥٧، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه في «**السنن**»: ٢/ ١٢٧١، رقم (٣٨٦٥)، من حديث:
=

لَا بُدَّ أَنْ يَضَعَ فِي يَدَيْكَ شَيْئًا، وَعَطَاءُ الْكَرِيمِ عَلَىٰ قَدْرِ كَرَمِهِ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَغْنَىٰ الْأَغْنِيَاءِ، عَطَاؤُهُ كَلَامٌ، وَعَذَابُهُ كَلَامٌ، وَنَعِيمُهُ كَلَامٌ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ.

فَسُبْحَانَ رَبِّي، سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ!!

أَقْبِلْ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي الْعَشْرِ، جَدِّدْ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَزْمًا عَلَىٰ مَتَابٍ صَحِيحٍ بِعَزْمٍ أَكِيدٍ عَلَىٰ عَدَمِ الْعَوْدِ لِمَا كَانَ هُنَالِكَ.

❀❀❀

=

سَلْمَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**».

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، والحديث صححه الألباني في «**صحيح أبي داود**»: ٥/ ٢٢٦، رقم (١٣٣٧).

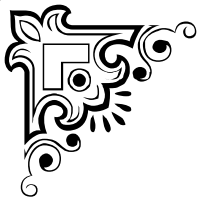
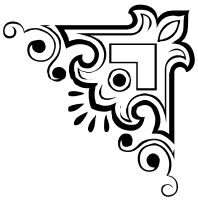

الْإِقْبَالُ عَلَى الْعَشْرِ بِرَدِّ الْمَظَالِمِ إِلَى أَهْلِهَا

عَبْدَ اللهِ! رُدَّ الْمَظَالِمَ قَبْلَ بَدْءِ الْعَشْرِ حَتَّىٰ يَقْبَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْكَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَلَيْكَ أَنْ تَتَقَلَّلَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ جِدًّا؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ هَمُّهُ مَا يَدْخُلُ بَطْنُهُ كَانَتْ قِيمَتُهُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا!!

وَإِنَّهُ يَحْجِزُ الْعَبْدَ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِقِيمَةِ مَا يَسْمَعُ مِنْ كَلَامِ اللهِ ﷻ وَمِنْ مَوَاعِظِ نَبِيِّهِ ﷺ وَهِدَايَتِهِ إِلَّا مَا يَتَرَاكَمُ هُنَالِكَ مِنَ الْأَخْلَاطِ عَلَىٰ تَلَافِيفِ مُخِّهِ، وَمَا يَحْجُبُ وَجْهَ قَلْبِهِ، وَيُغَيِّبُ عَنَّا صَفْحَةَ عَقْلِهِ مَعَ فُؤَادِهِ.

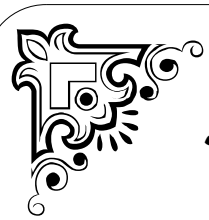

الْإِقْبَالُ عَلَى الْعَشْرِ بِتَخْلِيَةِ الْقَلْبِ مِنْ آفَاتِهِ

عِبَادَ اللهِ! مَنْ دَخَلَ الْعَشْرُ بِغِلٍّ وَحِقْدٍ وَحَسَدٍ، وَعِنْدَهُ مِنَ الضِّغْنِ وَالضَّغِينَةِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا يُلَوِّثُ نَهْرًا؛ لَا تَظُنَّنَّ أَنَّهُ يَتَحَصَّلُ فِي الْمُنْتَهَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**»(١).

إِنَّمَا الصَّوْمُ مَعْنًىٰ بِأَمَانَةٍ يَنْبَغِي أَنْ تُؤَدَّىٰ؛ هُوَ حِفْظُ الْقَلْبِ عَنْ سُوءِ خَطَرَاتِهِ، وَعَنْ وَارِدِ مُعْوَجِّ إِرَادَاتِهِ وَوَارِدَاتِهِ.

هُوَ إِقَامَةٌ لِلْقَلْبِ عَلَىٰ السَّوِيَّةِ بِالْمَنْهَجِ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ مُشَاهِدًا لِرَبِّهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُشَاهِدًا فَلْيَكُنْ مُرَاقِبًا، كَمَا فِي مَقَامَيِ الْإِحْسَانِ الَّذِي ذَكَرَهُ النَّبِيُّ الْعَدْنَانُ ﷺ، قَالَ ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: ١/ ٥٣٩، رقم (١٦٩٠)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ١/ ١١٥، رقم (٥٠)، ومسلم في «**الصحيح**»: ١/ ٣٩، رقم (٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

=

ثُمَّ ضَبْطٌ لِتِلْكَ الْجَوَارِحِ عَلَىٰ مَنْهَجِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ بِسَمْعٍ لَا يَسْمَعُ إِلَّا خَيْرًا، وَبِبَصَرٍ لَا يُبْصِرُ إِلَّا خَيْرًا، وَبِيَدٍ لَا تَمْتَدُّ إِلَّا إِلَىٰ مَعْرُوفٍ، وَبِرِجْلٍ لَا تَسْعَىٰ إِلَّا إِلَىٰ بِرٍّ وَخَيْرٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُلْقِي الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ عَلَىٰ عَتَبَاتِ رَحَمَاتِ رَبِّهِ.

وَمَنْ أَدَامَ الطَّرْقَ فَحَرِيٌّ أَنْ تُفَتَّحَ لَهُ الْأَبْوَابُ، وَرَبِّي ﷻ حَيِيٌّ كَرِيمٌ سِتِّيرٌ، يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ.

فَاللَّهُمَّ بَلِّغْنَا الْعَشْرَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ خَيْرِ حَالٍ تُحِبُّهَا وَتَرْضَاهَا يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا الْعَشْرَ، وَاجْعَلَهُ مُنْسَلِخًا عَنَّا مَغْفُورًا لَنَا يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، مُبَارَكًا لَنَا فِي سَعْيِنَا، مَغْفُورًا لَنَا ذَنْبَنَا؛ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ. (*).

❀❀❀

=

وفي رواية لمسلم ١/ ٤٠، رقم (١٠): «**أَنْ تَخْشَىٰ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**،...»، والحديث أيضا في «صحيح مسلم» من رواية ابْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنهما، بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ: «الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ ١».

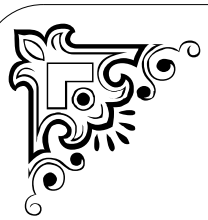

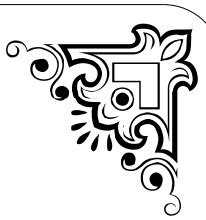

الفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ ٣

نِعْمَةُ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ فِي الْقُلُوبِ ٤

مَعْنَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ ٦

السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٠

السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ٢٢

مَنْزِلَةُ السَّكِينَةِ ٢٦

مَنْزِلَةُ الطُّمَأْنِينَةِ ٣٢

الطَّرِيقُ إِلَىٰ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ ٣٦

مِنْ ثَمَرَاتِ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ ٤٩

عِبَادَاتُ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ

مُقَدِّمَةٌ ٥٣

إِدْرَاكُ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ٥٤

عِبَادَاتُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ ٥٥
مِنْ عِبَادَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَمَضَانَ: مُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ ٥٨
مِنْ عِبَادَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَشْرِ: الِاعْتِكَافُ ٦٠
الِاجْتِهَادُ فِي الْعَشْرِ لِإِدْرَاكِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ٦٢
الْإِقْبَالُ عَلَىٰ اللهِ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ دُخُولِ الْعَشْرِ..... ٦٥
الْإِقْبَالُ عَلَىٰ الْعَشْرِ بِرَدِّ الْمَظَالِمِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ٦٧
الْإِقْبَالُ عَلَىٰ الْعَشْرِ بِتَخْلِيَةِ الْقَلْبِ مِنْ آفَاتِهِ..... ٦٨
الْفِهْرِسُ ٧١